مفكرو الاسلام

الحلقة الاولى

محمد الجبابي



الطبعة الاولى
١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م

مطبعة الأمنية
شارع المامونية بالرباط

الحكمة ضالة المومن يلتقطها حيث وجدها

(حديث شريف



محمد الحبابي

اتيت لاخدم لا لاخدَم

السيد المسيح (صلعم)

Lahbabi, Mohamed Aziz.

مفكرو الاسلام

الحلقة الاولى



محمد الحبابي

الطبعة الاولى

١٣٦٤ هـ ١٩٤٥ م

مطبعة الامنية

شارع المامونية بالرباط

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد الرسول الحكيم

اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو أن تحل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك .

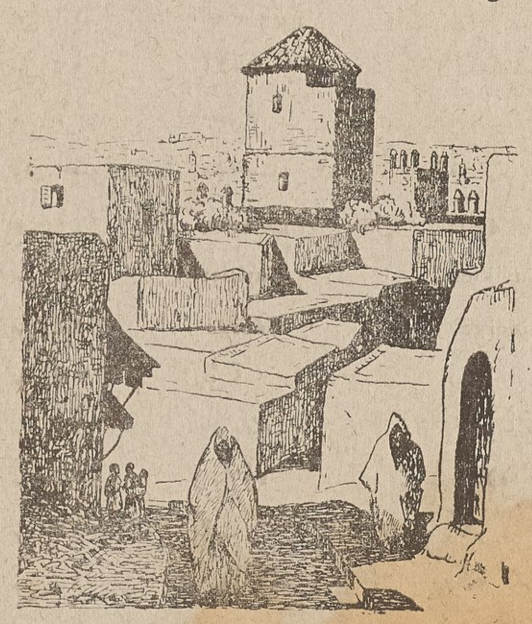


إصلاح خطأ

بما أنى بفاس والمطبعة بالرباط ، لم أجد لربط الوصل بيننا للتصحيح اللازم من سبيل ، ولهذا وقعت أغلاط مطبعية لاتفوت القاريء ، ها أنا أثبت بعضها فى الجدول الآتي :

		خطأ	إصلاح
ص ٩	س ٢١	ذى بدأ	ذي بدء
ص ٢٠	س ٥	مبادىء	مبادئ
ص ٢١	س ١٦	الدساسين	الجساسة
ص ٢٦	س ١٣	الاسلامة	الاسلامية
ص ٤٠	س ٥	خوفا	خوف
ص ٤٢	(في العنوان)	مذاهب	مدارس
ص ٤٧	س ٥	بعضها فى تقدم بعض	بعضها فى بعض
ص ٤٧	س ١٢	Cuvilier	Cuvillier
ص ٥٣	س ١٤	Géorgs	Géorge
ص ٥٩	س ٧	رؤية	رؤيا
ص ٧٣	س ١٠	حريك	تحريك
ص ٩٨	س ١٠	زملاؤه	زملاءه
ص ١٠٦	س ١٣	كف	كفر
ص ١٠٩	س ١٠	لكنها لاتحتوي	لكنه لايحتوي

	خطأ	اصلاح
ص ١٢٠ س ٣	لاتعرفه	لاتعرف
ص ١٢٥ س ٢		وقدوصلت
ص ١٤٠ (في التعليق)	مطرود	مطرد
ص ١٦٢ س ١٢	ماهو	ماهي
ص ١٨٦ س ١٣	يحسب	بحسب
ص ١٩٣ س ٤	للوبل	للوبال
ص ١٩٣ س ٨ و ١١	عشر	عشرة
ص ٢٠٠ س ١١	السفر	الصفر (وقد تكرر هذا الخطأ)
ص ٢١٦ س ١٦	قانون	قانونا
ص ٢١٨ س ١١	ارتيات	ارتياب
ص ٢٢٢ س ٢	نمير	نميز
ص ٢٣١ س ٨	يفاجؤنا	يفاجئنا



مفكرو الاسلام

الحلقة الاولى

تمهيد

لا يمكن لعصر من العصور أن يخلو من عباقرة يطلعون مع الشمس من مطلع الشمس، وما كان ليخمد صوت هذا الشرق، تلك المواطن التى انبثقت منها حكمة بوذا، ورفع فيها موسى راية الدعاية ضد الرق والظلم، وكسر فيها شوكة السحرة، وسطعت منها مبادىء الرحمة والدعوة للتآخى الانسانى التى ارسل بها عيسى، وتألقت منها أنوار الهداية الاسلامية التى جعلت الغرب يستقبل الشرق فى انبعاثاته، وجعلت الشرق يستقبل الجزيرة العربية فى اتجاهه، فما اسمى ماجاء به العرب، وما أعرب ماسموا به. دين الهداية والمدنية. وإسلام السلم والمساواة.

حقا لقد خفت صوت الشرق وضعفت رناته عندما انكمش على المادة المجردة واتخذها معبودا أو نسى ماوراء المادة من معنويات، ولما انكب على قشور المعنويات والزهد في الماديات غافلا عن ان الروح لاتقوم بلامادة، كما أن المادة تصبح أداة

تخريب إذا لم يكن فى صلبها عناصر معنوية ، فالمعنويات والماديات هى مقومات الحياة الأولى ، كما تشهد بذلك التجارب اليومية والظاهرات الكونية المسلمة ، ففى انفصالهما افراط وتفريط .

ومنذ عصور ونحن أبناء هذا المغرب من هذا الشرق فى تدهور ، بيد أننا بدأنا نحس بالمرض بل بالخطر ونعمل على العلاج ، ولا يصلح الخلف إلا بما صلح به السلف ، لكن ، من منا يعرف السلف ؟

إن بعض الكتب هى وحدها التى تعرف عن سلفنا أشياء واشياء ، لكن هذه المصنفات مبعثرة مغبرة ، ترهقها قترة ، تشتت ذخائرنا هنا وهناك وابتلعت الظروف الكثير منها ، وأكلت الجرذان حقها وتركت للأرضة نصيبا .

ومهما عظم الضياع فإن الكتب التى احتفظ بها الزمن كثيرة بيد ان من عنده سفر مفقود يضن به ويريد أن يتبرك به وحده لاشريك له لانه يرى أن من حسن حظه ومن إذاعة صيته أن يستبد بمخطوط هو إرث الأمة بل إرث الانسانية جمعاء .

وقد كان البارى يؤيد من حين لحين بعض المشجعين على نشر الثقافة ويدفع اصحاب الغيرة الدينية او القومية الى طبع بعض الكتب على نفقاتهم او على نفقات حكومة المغرب ، غير

أن الفقر مايزال ناشرا ظله على (مرافع) خزائننا الخاصة والعامة بالنسبة لآثار الأجداد الكثيرة.

ولقد أخذ يدب فينا بصيص الأمل حين تأسست بالرباط جمعية التأليف والترجمة والنشر، لكن يجمل بنا ألا نخفى أسفنا على إقبار هذه الهيأة التى ماتت قبل عقيقتها، راجين من الغيورين أن يلدوا أخرى، فإذا خلقت فإنها سوف لا تعدم خطابا من مختلف الملل والنحل.

☆☆☆

لقد اعتنى كثير من المستشرقين بدراسة ءاثار ءابائنا والبحث عن مكنونات خزائننا وعما تحت غبار الأيام من تبر خالص، فالشرق كان مهدا للوحى وكانت وستبقى تتمخض فيه الإلهامات والمدنيات.

أخذ إلهام الشرق بلب احد هؤلاء المستشرقين وهو البحاثة (البارون كارادفو) الفرنسى Baron Carra de Vaux فصنف كتبا مختلفة فى مختلف نواحى الثقافة العربية الخالدة، فألف كتابا عن الغزالى وءاخر عن ابن سينا كما قام بدور هام بدائرة المعارف الإسلامية.

ويمتاز هذا العالم بالإنصاف فى بحوثه والاتساع فى الاطلاع.

وله كتاب Les Penseurs de l'Islame «مفكرو الاسلام» فى خمسة اجزاء فى كل جزء منها ٤٠٠ صفحة، وهو مجموعة اراء وتحليلات لأكبر الشخصيات الإسلامية التى أصبحت عالمية، وللنضوج الفكرى الإسلامى أيام ازدهارنا.

اطلعت على الكتاب فأعجبت به ورأيت من واجبى ان أشارك فى الاستفادة منه مواطنى الذين لا يمكن أكثرهم أن يقرأوه بالفرنسية، فترجمت لهم هذا القسم وأضفت الى فصوله فصولا أخرى تكميلية، وأصحبته بالتعاليق التى ارتأيت فيها تتمة للفائدة والتراجم المهمة والتواريخ الهجرية، او الميلادية، حين يعطى المؤلف نوعا واحدا، كما انى قسمت الفصول الى أبواب وقدمت وأخرت تسهيلا على القارىء

وقد آثرت نقل هذا (١) القسم لتبيان كيف يتفهم الغربيون

---

(١) وهو الفصل الثانى من ج ٤.

وعناوين الفصول الاخرى بهذا الجزء هى :

أ) فلسفة المدرسة التقليدية الجدلية

ج) الصوفية

د) الموسيقى.

عقائدنا، وما أجدرنى هنـا بأن أشير الى ان حاكى الكفر ليس بكافر، وان الناقل ليس بمقرر.

فعسى ان اكون موفقا فى هذه الخطوة الأولى حتى تكون خير مشجع لى على إتمام السلسلة

☆☆☆

وإلى الحلقتين المقبلتين ان شاء الله حيث سننغمر مع الصوفيين فى خمرتهم ومع الرياضيين فى أرقامهم وتجاربهم.

فاس فاتح محرم عام ١٣٦٢

محمد بن عبد العزيز الحبابى



مقدمة

أترجم بتصرف مقدمة الجزء الأول من كتاب مفكري الإسلام لتبيان البواعث التي دفعت بالمسيو (برون كارادوفو) إلى تأليف هذا الكتاب ولمعرفة ماتشتمل عليه مختلف الاجزاء، قال:

«إن اهتمام الجمهور بالغرب قد أخذ يتجه نحو الشرق أكثر من ذي قبل. فالروابط التي تصل دول أوروبا بالشعوب الإسلامية قد ازدادت وثوقا في ساحة الوغى أيام الحرب العظمى.

ولفرنسا اليوم اتصال متين بكثير من الدول الإسلامية، فيجب عليها أن تعرف معرفة كبيرة هاته الدول وأن تدرس روحها وماضيها ومعتقداتها وغرائزها ومجدها الغابر.

☆☆☆

وصل المستشرقون بفضل خدماتهم إلى تعريف الأوروبيين بآداب شاسعة الأطراف غنية رقيقة ومتنوعة مفصلة مليئة بالأعمال والأفكار.

وقد طبع الشرقيون أنفسهم كثيرا من منتوجات أسلافهم، فالمواد المنشورة اليوم باللغات الثلاثة العظيمة : العربية والتركية والفارسية ضخمة جدا ، وانه ليزداد صعوبة الاتجاه في مثل هذه البحور - كما يقول العرب - لمن ليست له تجربة كبيرة ، ولهذا كان لازما وجود مؤلفات عامة في هذه الموضوعات ، فنحن لاناتى في كتابنا (مفكرو الاسلام) بفهرس المكتب ولائحة للأعلام ، بل نقدم زبدة الاختيار، إذغايتنا ليست في التكلم عن كل شيء ، ولكنها في إظهار الشخصيات البارزة والتعريف بأمهات الكتب وبعض الأفكار الأساسية والنظريات المهمة ، فنحن لانجعل بين يدى القارىء لائحة أسماء وعناوين المصنفات، بل إننا نقدم له أشياء حية : أشخاصا وآراء وطبائع .

☆☆☆

إن كل هذه الآداب تنبض أفكارا وحيوية . وتتجلى فيها (طبيعيا) عاطفة حب الحق مع الميل إلى الأخلاق والزهد ، وإن حياة الفاتحين (ولو حياة أفظعهم) لخاضعة لذوق فنى وأدبى مفعم إخلاصا ، ولمتأثرة بنوع من الغريزة السامية في حب النظام، وبالرزانة والحكمة.

وكتابنا هذا يحتوى على خمسة أجزاء :

فالاول : خاص بالأمراء والمؤرخين وبالفلسفة السياسية.

والثانى : بالجغرافية والطبيعيات ، فمنذ القديم والجغرافيون العرب معروفون بأوروبا ، وأما مثقفوا هـذه الامة من أطباء ومنجمين وعلماء الجبر والكيمياء فمشهورون منذ القرون الوسطى ، ولهذا نلخص فى هذا الجزء الخدمات التى قدموا للعلم .

وفي الثالث : نتعرض للتفسير والفقه .

وفي الرابع : الى الفلسفة السكولاستيكية(١) والكلام والتصوف

وبالخامس : نلـقى نظرة عـلى الطـوائف والمـذهب الإباحى الحالى (٢) . »

---

(١) كثيرا ماسترد هذه اللفظة فى هـذا الكتاب ، ولهذا نلقى عليها نظرة بادىء ذى بدأ في الصفحة التى تلى .

(٢) يتكلم في هذا الجزء عن مذهب الشيعة وما تفرع عنه (الاسماعليون والدروز والبابيون) وعن النهضة الجـديدة بالعالم الاسلامى (الوهابيون ومدرسة محمد عبده وغير ذلك .)

الفلسفة السكولاستيكية

Philosophie SColastique

اخترت لترجمتها : الفلسفة التقليدية المدرسية، او الفلسفة التقليدية الجدلية.

والفلسفة (السكولاستيكية) هى فلسفة القرون الوسطى، وتنشر ظلها من القرن الثامن للميلاد (حيث أسس شرلمان Charlèmagne أمبراطور فرنسا إذ ذاك، وهو معاصر هارون الرشيد، مدارس في أمبراطوريته كانت تدرس فيها المذاهب الفلسفية التى كان مقرها ببيزنطية وبغداد وقرطبة) الى القرن السادس عشر أي الى عصر الانبعاث الايطالى.

ولفظ (سكولاستيك) مشتق من لفظة لاتينية كانت تطلق على المدارس فى القرون الوسطى (scolasticus).

ومميزات هذه المدارس الفلسفية هى :

أ) النظام في الأسئلة والأجوبة مع حرية في النقد.

ب) كانت ذات صبغة دينية بمعنى أنها كانت تستعين بالعقل والدين لتثبت أن الإيمان يتفق والبديهة العقلية.

ج) عدم الخوض في البحوث العلمية التى من شأنها أن تصل بصاحبها إلى نتيجة معاكسة لما تقرر الكنيسة.

د) ألا تحصر مناقشاتنا في الدين بل ان توسع أفقها (مع الخضوع للدين فى الكليات والجزئيات).

هـ) عدم الجدال في المسائل الدينية وإنما التصديق بها لأن العقل لا يمكن أن يفهمها الا بوحى إلاهى.

☆☆☆

وهذا القسم الأخير - كما يظهر لى - من أثر اليهود حيث إن الحكماء الإسرائليين كانوا يقولون بعجز العقل البشرى عن إدراك المسائل التى تصطبغ بطابع الفلسفة المحضة والحكم عليها، فعوضا عن أن يكلفوا عقولهم مشقة النظر والتحليل يستندون الى الكتاب المقدس الذى يحضهم على نبذ الجدال المنطقى:

« أما الحكمة، فمن أين توجد، وأين هو مكان الفهم؟ لا يعرف الانسان قيمتها ولا توجد في أرض الاحياء....

الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها... وقال للانسان:

هو ذا مخافة الرب هى الحكمة ، والحيدان عن الشر هو الفهم »

(التوراة ، سفر أيوب ، الاصحاح الثامن والعشرون)

انظر كذلك فى نفس السفر الاصحاحات ٣٨و٣٩و٤٠و٤١و٤٢



القسم

الاول

علم الكلام

علم الكلام

« منذ نشأة الإسلام أضحى فيه البحث الفلسفي ذا صلة مباشرة باللاهوت المسمى بالكلام.

دخل علم الكلام في الإسلام عن طريق النقل والرواية، وهو متقدم على ترجمة كتب قدماء اليونان التي بعثت فيه روحا جديدة. والحقيقة أنه لم يتبع فلسفة المدرسة التقليدية، وإنما له شبه بالتدقيقات الجدلية في البحوث اللاهوتية التي كانت مسيطرة على البزنطيين، ويجب على من أراد أن يقف على أصل هذا العلم أن يبحث في الثقافة المسيحية.

☆☆☆

اعتنى في الإسلام بالكلام اعتناء كله قوة وحيوية، فاشتغل به علماء كثيرون جدا منذ أوائل القرن الثاني للهجرة: وكانوا يناضلون بصلابة شديدة عن ءارائهم المتناقضة تناقضا كبيرا، فيقدر ما قويت وسهلت الايات القرءانية التي تتعلق بالله وبصفاته

بقدر مابعد الاختلاف بينها وبين هاته التدقيقات في البحث والجدال ، ومثل ذلك ماحصل من بون شاسع بين الحقوق التى في القرءان وبين فقه الأئمة المفصل المتشعب [1] »



(١) إن هذه الفكرة لتزيدني إعجابا باطلاع المسيو كارا ، فهى بحق فكرة خبير بأصول الاسلام وفروعه ، وكأني بها صادرة عن مصلح مسلم كبير من زعماء الحركة السلفية .

حبذا لو تفطن إليها المسلمون . فمن دواعى الاسف أن يشعر الاوروبيون بهذه الحقيقة وجمهور الامة الاسلامية عنها غافلون.

ماهو اصل علم الكلام؟

قدم المسيو كارا أن أصل علم الكلام من الثقافة المسيحية .

حقا قد تأثر علم الكلام بالثقافة المسيحية من جملة ما تأثرت به المدنية الإسلامية من ثقافات ومدنيات ، لكن التأثر غير الاصل.

إن علم الكلام علم إسلامى محض أوجدته عوامل دينيه قاهرة ، ومن الطبيعي أن يكون إسلاميا ، لان الضرورة أم الاختراع :

أتى الإسلام فصادم مناقضين كثرا ومحاجين عنيدين ، فلم يربداً من مناقشتهم واقناعهم بالبرهان العقلي والدليل القوى ، وكان فى هذا العراك العنيف قبل أن يتصل بالثقافات الاجنبية ، فقاوم المشركين من العرب عباد : « اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » ، والذين ألهوا الكواكب فسخر منهم فى حكاية إبراهيم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين . » ، ورد على الدهريين الذين قالوا : « مايهلكنا الا الدهر . » ، وعلى من أنكر البعث : « من يحيى

العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة ! »

والاسلام نفسه يحض على البحث والنظر : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والارض » «إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والارض، ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك » .

كما يحض على المجادلة لانه دين العقل والايمان عن طريق الاقناع بالدليل ، بل يوبخ المقلدين الذين يقولون : « إنا وجدنا اباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » .

إنه يامر بالمجادلة لكنه يحدد لها آدابا : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن . »

والتاريخ يحتفظ لنا بكثير من محاجات الرسول (صلعم) لغير المسلمين .

☆☆☆

هذه أهم أسس علم الكلام ، وهى إسلامية قرءانية ، نعم ستنظم هذه الاسس وستتحلى بالصبغة الفلسفية متأثرة بالثقافات الفارسية والمسيحية واليهودية ....

إن الدين الإسلامي لا يعمل بالظن : « إن الظن لا يغنى من الحق شيئا » ، بل يرغب في الانتباه ودراسة المحسوسات : « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها ... » ، « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين .. » ، « والضحى والليل إذا سجى .. » ، « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الارض كيف سطحت . . » ، « أولم ينظروا فى ملكوت السماوات ولارض ... »

نعم إن من أساسه الدعوة إلى التجربة العلمية وإلى العلوم الوضعية ، أما اليونان فلم يجعلوا أساس بحوثهم التجربة ، فبقيت معارفهم فلسفة نظريات :

« لم يهتد اليونان مدة اشتغالهم بالبحوث الفلسفية الى جعل التجربة قاعدة البحث وأساس التنقيب » (هذا ما يعترف به المستر هـ . ج ولز الانجليزي في كتابه خلاصة التاريخ العام المؤرخ فى أواخر الحرب العظمى) H. G. WELLS

استعان المسلمون بفلسفة المتقدمين على إبراز علم الكلام في حلته الجدلية المنطقية ، على أنهم انتقدوها وتركوا الزبد يذهب جفاء ، يقول ابن رشد :

« إن المتقدمين حينما حاكمنا كلامهم الى المنطق وجدناهم لم يوفوا بما اشترطوه هناك »

كان العرب وثنيين وكانوا في جوار البزنطيين ورثة الفلسفة اليونانية الوثنية ، وكانت اذ ذاك اتصالات تجارية بين البلدين ، فلم لم يأخذ العرب عنهم مبادىء هاته الفلسفة وبقوا في معزل عن البحوث الجدلية الى انبثاق فجر الإسلام ؟

ان طبيعة الجزيرة العربية وطبيعة ابنائها ليست فيهما قابلية للفلسفة في حين ان الإسلام جاء وفي صلبه الحض على البحث ، فأخذ العرب ـ مدفوعين بدافع الدين ـ في غيرهم من المسلمين يبحثون ويجادلون وينخلون كل مايرد عليهم من الأفكار والاستنتاجات الدينية والاستنباطات العلمية .

فلولا الإسلام لم يكن العرب ليصبحوا امة تفتخر بالكندي وابن خلدون وامثالهما ....

كما انه لولا الاسلام لم تصل الفلسفة اليونانية الى الغرب منقحة منتقاة من بين كثير من الأوهام ومرتكزة على الملاحظة والتجربة ، مطبقة على قواعد المنطق (لأن الفلسفة اليونانية نشأت قبل ارسطو واضع علم المنطق) .

أشرت هنا إلى اليونانيين لأن المسلمين ترجموا كتبهم، فأردت هنا ان اثبت كذلك ان الترجمة غير الاصل.

☆☆☆

كان بالإسلام مشاكل سياسية كالخلافة والإمامة اصطبغت بالصبغة الدينية واصبحت الاحزاب السياسية تبنى دعاياتها على المبادىء الدينية.

واعتنق الإسلام احبار ورهبان وعلماء في المانوية وفى الزرادشتية فأخذوا يثيرون مسائل من دينهم الاول ويصبغونها بصبغة الاسلام - الكثير منهم عن غير قصد - فيتحمس لها البعض ويعمل على دحضها آخرون

كما اظهر الإسلام بعضهم ليدخلوا في هذا الدين الجديد ماليس منه (كالإسرائليات)، وزعماء هذه الطائفة كثيرون اشهرهم كعب الاحبار الذي قال عنه المصلح الكبير رشيد رضا : « إنه غش المسلمين بالاسلام »، والذي مايزال الى اليوم (ويالالأسف) خطباؤنا يروون عنه فوق منابر الجمعة، وكلما ذكروا اسمه قالوا: «.. سيدنا كعب الاحبار رضى الله عنه ...» (راجع مقال الدساسين بالجزء التاسع من تفسير المنار وكذلك

قصة مقتل عمر في كتاب عمر ابى النصر، المسمى - عمر بن الخطاب - تزدد تبصرا فى دس كعب (١) للإسلام)، ويقول عنه الاستاذ فؤاد افرام البستانى في الروائع ١٣ (ابن خلدون، مقدمة المقدمة)، التعليق ٥ ص ١٣:

«.. يروى عنه المؤرخين والمفسرون كثيرا من الاحاديث والغرائب المتعلقة بقدماء العرب وغيرهم من الشعوب، ولكن اكثر هذه الاساطير لاصحة لها.»، فهذا قول صريح فى كون كعب وضاعا، ويلقبه الاستاذ رشيد رضا في تفسير المنار، عند شرح قوله تعالى «يسألونك عن الساعة» بـ (بطل الخرافات الاسرائلية).

وإلى جانب هؤلاء جماعة من المغفلين تأثروا باليهودية فنقلوا منها الى الاسلام اشياء مشوهة وجدت في سذاجة العرب مرعى خصبا فترعرعت، وعلى راس هذه الطائفة اخص بالذكر السدى ووهب بن منبه.

ولابن خلدون (بالمقدمة) نظرية في تفسير كيف ذاعت الاسرائليات

---

(١) وانظر محاضرات الخضارى عند الكلام عن عمر رضى الله عنه. وإعجاز القرءان - للرافعى -

بين الاوساط الإسلامية.

في هذا الوسط الغنى بالأفكار والنظريات، وفي هذا العراك العنيف بين المخلصين والمنافقين دعت ضرورة تنازع البقاء بين التقليد والتجديد وبين الجمود والتفكير الى مناقشات في القبول والرد، ذا سنة، وذاك زيغ وبدعة

«.. وإنما مقصوده (أي علم الكلام) حفظ عقائد أهل السنة على أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله سبحانه الى عباده على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقيدة هى الحق على مافيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار.

ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة أهل الحق على أهلها فأنشأ الله سبحانه طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة المأثورة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله. ولقد قام طائفة منهم بما أيدهم الله تعالى فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغير في وجه

ما أحدث من البدعة ... » (من فصل : القول فى بيان مقصود علم الكلام وحاصله - كتاب المنقذ من الضلال لحجة الإسلام محمد الغزالى) .

ومن العوامل أيضا على إيجاد وتشجيع المجادلات احتكاك المسلمين بعد الفتح بالثقافات الأجنبية ، فكان حب الاستطلاع يدفع المسلمين الى دراسة مبادىء ديانات الأمم المجاورة ليتسنى لهم مناقشاتهم فيها ، والمحاجة تتطلب طبعاً معرفة حجج الخصم وأقوال الفرق ، وهذه المعرفة لا تكفى وحدها ، بل المناقشات تلزم بالنظر والتأمل فاضطر المسلمون إذن إلى التسلح بالفلسفة لمحاجات المسيحيين وغير المسيحيين ، وفلسفة ذاك العصر لم تكن مسيحية !

لا أدرى كيف أفند القول بأن أصل علم الكلام من المسيحية ، والتاريخ (الشاهد العدل) يقرر بأن المسيحية والفلسفة عدوان لدودان ؟

يقول التاريخ :

حجتى أن الخصام العنيف ، بل الحرب الشعواء التى قامت فى القرن السادس عشر بين الكنيسة وبين المفكرين والمجتهدين من أتباع (ليطير Luther وكالفان Calvin) قد جعلت من

المسيحية دينين لا مذهبين ، وأنه لم يظهر فى تاريخ أوروبا المسيحية فيلسوف كبير من صف (شبنهور وسبنوزى وبركسن) إلا بعد أن خلا للفلسفة الجو من السيطرة المسيحية ، أى بعد انتشار الإلحاد في الربوع الغربية وبعد أن انكسرت شوكة (الفاتيكان) وخفت مراقبته على التفكير ومحاربته لحرية الرأي (في المعتقدات وحتى فى الميدان العلمى المحض)

ثم يزيد التاريخ :

أما الإسلام فقد ازدهرت الفلسفة بازدهاره ، ومنذ بدأ نجم المسلمين يأفل أخذت فلسفتهم تأفل حتى اننى لا أعرف لهم بعد ابن باجة والحاتمى والكندى .... من فيلسوف كبير .

*

* *

جاء فى الجزء الأول من الملل :

« طالع شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المامون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام ، وأفردتها فناً من فنون العلم ، وسمتها باسم علم الكلام . »

فالاسم إذن أتى في العصر العباسى ، لكن المسمى كان قبل ذلك لوجود دواعيه ، ودواعيه - كما رأينا - إسلامية .

إن النتيجة العامة التى نخرج بها من هذا كله هى أن الثقافة المسيحية (من بين ثقافات أجنبية أخرى) أثرت فى علم الـكلام ، وذاك أمر مسلم يقضى به قانون التفاعل ، وهو قانون يحصل دائما بين كل جديد وقديم فى جميع أطوار الانقلابات التى مرت بها الإنسانية (على أن التفاعل ليس هو الأصل).

ونضيف الى هذه النتيجة العامة ، استنتاجا آخر يظهر جليا وهو أن الثقافة الإسلامية أثرت في المسيحية أكثر مما أثرت هذه في الإسلام ، ويلذ لى ان اختم بفقرات تزيد تأييدا لما قلت من كتاب (خلاصة تاريخ العرب للمسيو سيديو الفرنسى) الترجمة العربية التى اعتنى بها سعادة على باشا مبارك (ص ٩) :

« .... وأما تاريخ الخلفاء الراشدين وكذا الأموية في دمشق وقرطبة والعباسية ببغـداد والفاطمية بمصر ووصف تمزيق الإسلامة المشرقية التى أغار عليها الأتراك ثم المغول فدونها الأفرنج تدويناً حسنا وأضفنا إليها ماتركوه من أصولها وهو وصف التمدن العربى الذي تمكنت أصوله في آفاق الدنيا القديمة أقوى تمكن ، ولا نزال الى الآن نرى آثاره حين نبحث عن مستمد مبادىء مانحن عليه من المعلومات الأوروباوية ، فإن العرب

فى غاية القرن الثامن بعد الميلاد فقدوا الحمية الحربية وشغفوا بحوز المعارف حتى أخذت عما قليل مدائن قرطبة وطليطلة والقاهرة وفاس ومراكش وأصفهان وسمرقند تفاخر بغداد فى حيازة العلوم، والمعارف وقرىء ماترجم الى العربية من كتب اليونان فى المدارس الإسلامية، وبذل العرب همتهم فى الاستغلال لجميع ماابتكرته لأفهام البشرية من المعلومات والفنون وشهروا فى غالب البلاد خصوصا البلاد النصرانية من أوروبا ابتكارات تدل على أنهم أئمتنا فى المعارف، ولنا شاهد أصدق على علو شانهم الذي تجهله الفرنج من أزمان مديدة.

الأول: ماأثر عنهم من تواريخ القرون المتوسطة وأخبار الرحل والأسفار وقواميس مااشتهر من الأمكنة والرجال والمجاميع الشاملة لكثير من الفنون الفاخرة.

والثانى: ماكان لديهم من الصناعات الفائقة والمبانى الفاخرة والاستكشافات المهمة فى الفنون، وما أوسعوا دائرته من علوم الطب والتاريخ الطبيعى والكيمياء الصحيحة والفلاحة والعلوم الصحيحة التى مارسوها بغاية النشاط من القرن التاسع الى القرن الخامس عشر من الميلاد من سنة ٢٨٨ إلى سنة ٩٠٧ هجرية.»

المتكلمون و المعتزلة

إن المذهب الأول للمتكلمين البحاثين هو مذهب المعتزلة الذين يعدون خارجين من الدين.

أما مذهب أهل السنة فله أوليات بالقرءان، ولم يتم استقراره الا بعد النزاع الطويل العنيف الذي خاصمه أخيراً من كفر المعتزلة.

واختص السنيون بلقب المتكلمين، وكان قبل يطلق على جميع الباحثين فى التوحيد من سنيين وغيرهم.

*

* *

إننا لنأسف جداً لضياع كتب المعتزلة، فلا نعرف عنهم الا ماجاء فى فقرتين مهمتين للشهرستانى والايجى، (١) وفي الفقرات التى ينقلها المؤرخون والمتكلمون الذين أتوا بعدهم.

(١) هو عضد الدين الايجى صاحب كتاب المواقف الشهير؛ توفى سنة ٧٥٦.

لم يؤسس المعتزلة مدرسة واحدة متحدة بل كانوا مدارس شتى لأن كل فرد منهم يمتاز بآراء شخصية ، على أنهم متفقون جميعاً فى نقط أساسية .

والمسائل التى يحللونها تنقسم الى نوعين ، ماهو توحيد محض كصفات الله وحرية العبد ، وماهو سياسى كالإمامة ، ونحن لانتكلم عن هذا القسم الأخير .

*

* *

ويصف المسعودى في كتابه مروج الذهب (ج ٧ ص ٢٣١ وما بعدها) مناظرات وقعت بين بعض علماء الكلام وفيهم أفراد من المعتزلة ، خصوصا أيام إمارة المتوكل في أوائل القرن الثالث ، فيلاحظ أن للمعتزلة آراء في مذهب الشيعة وفي الإمامة ، ويصفهم بالغلاة (جماعة من الشيعة المتطرفين)

*

* *

تعليقان :

---

٢) يقول م كارا : إننا لانعرف عن المعتزلة الا ماجاء فى فقرتين للشهرستانى وللإيجى .

حقا ، قد قضى على كتب المعتزلة أعداؤهم، لكننا نجـد ،
مهما يكن من شيء (كتاب الانتصار) ألفه الخياط للدفاع عنهم
والرد على ابن الراوندى (مطبوع)، ويشير ابن أبي حديد في شرح
نهج البلاغة الى الاعتزال ويبسط بعض ءارائهم ، (وهو مطبوع)
ونجد الكلام عنهم ايضا في كتاب الحيوان للجاحظ، وفى العلم الشامخ
(مطبوع كذلك) وفي الفرق بين الفرق للبغدادى (مطبوع)
وفى مقالات الإسلاميين للأشعرى (مطبوع) وفي غير
ذلك من الكتب ....

*

* *

(٣) المسعودي

هو أبو الحسن على المسعودي عاش فى القرن العاشر الميلاد ،
يرتقى نسبه الى الصحابى عبد الله بن مسعود ، ازداد ببغداد وتوفي
بالقاهرة سنة ٣٤٦ هـ .

وهو من أشهر كتاب العرب وله الباع الطويل في التاريخ،
وتغلب على كتابته الدعابة ، وقد اكتسب من كثرة تجوالـه
في العالم القديم تجارب ومعلومات قيمـة ، طالع تاريخ اليونان
والرومان وأتقن الفلسفة والأدب .

ألف في التاريخ والاجتماع والسياسة وأصول الديانات والمذاهب .

ولكتابه (مروج الذهب) شهرة كبيرة ، وقد طبع وترجم الى الفرنسية بعناية م باڤى دو كور تاي Pavet de Courteille وم باربييى دوميناز Barbier de Meynard سنة ١٨٦٥ .



إيضاح حقيقة : قيمة المعتزلة

– على هامش الفصل المتقدم –

فى نظر من يعد المعتزلة خارجين من الدين ؟

« إن الاسلام لايكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ! »

وقد قال الإمام مالك لمن سأله هل المعتزلة كفار : (من الكفر فروا) .

وكيف يمكن الاسلام أن يرمى بالكفر جماعة تمتاز بالبحث وبعد النظر ، ورائدها الوصول إلى معرفة الله ؟

وكيف يمكن الاسلام ان يرمى بالكفر جماعة قد اخذت على عاتقها ان ترد على الملاحدة والدهريين وان تذود عن الدين الحنيف ؟

فإن شاءت المدارس الفلسفية ان تتباهى فللإسلام ان يباهى بالمعتزلة ، فمذهبهم يرتكز على فلسفة متينة في اغلب مبادئها ، ينصرونها نصراً مؤزراً ، فهل من الجائز ان يحمل المسلمون التكفير في محل الاعجاب ؟

إن الذين وصفوا المعتزلة بالكفر هم زمرة من المتزمتين كانوا - لبعدهم عن ميدان الفكر وجهلهم بالبحوث العقلية وقصور إدراكهم لها - يرون في الفلسفة خطرا على الدين؛ مع ان للجدل الفلسفي اكبر الايادي في رد شبهات وهجومات خصوم الاسلام الذين حاولوا تهديمه عن طريق هذا النوع من الجدال.

*

* *

هؤلاء الشيعة قد اندفعوا بدافع سياسي إلى تأييد علي كرم الله وجهه بكل الوسائل، ولو ادى ذلك إلى تنفيذ الفكرة السياسية: [الغاية تبرر الوسيلة] فنالوا من اعراض كثير من الصحابة رضوان الله عليهم، واتت بعض طوائفهم بآراء يأباها الدين. الشيء الذي لم يات به المعتزلة. فلنقارن مثلا بين الاسماعليين والروافض وغيرهم من طوائف الشيعة وبين مذهب الاعتزال، نجد ان المعتزلة كانوا اكثر تحفظا من الآخرين واكثر رزانة؛ كانوا يحكمون العقل في المعتقدات والاشخاص، صرحاء غير مبالين بتقديس الجمهور لهذا او سخطه على ذاك، وإنما يضعون الفرد على بساط الفحص والتنقيب ثم يبدون رايهم له

او عليه مؤيدا بحجج منطقية غير متأثرين بنزعة حزبية.

فهل يعد اصحاب هذه الخصال الاسلامية غير مسلمين ؟

ومن مواقفهم الصلبة الخالدة مهاجماتهم اصحاب السلطة نهيا للمنكر، كمحاربتهم للوليد الخليفة الاموي حين تظاهر بالتهتك والخلاعة.

جاء في ج ٢ ص ٣٣٧ من (عيون الاخبار) لابن قتيبة، حكاية تعطينا صورة حية عما قدمت عن صرامة مواقفهم في نصح امراء الامة وحث رؤسائها على الحكم بالعدل واتباع الصراط السوي :

دخل عمرو بن عبيد على ابى جعفر المنصور ووعظه في لهجة من لاتاخذه في الله لومة لائم ولا يخاف الا سلطة الله، في لهجة المخلص والمسلم التقى.

فهل يكون امثال هؤلاء كفارا ؟

***

فما اجدر اليوم شبابنا المعجبين بمفكرى فرنسا في القرن الثامن عشر بدراسة مذهب المعتزلة ليتضح لهم ان افكار اولئك الغربيين - (اعنى اصحاب دائرة المعارف كما يسميهم التاريخ (Les Encyclopédistes وهم فولطير ودالامبير

وديدرو ومونتيسكيو .....) ، تلك الافكار المبنية على (الراسيوناليسم Rationalisme) اي على مذهب البحث المنطقى والحكم العقلى المجرد - كلها افكار ليست بغريبة عن الاسلام.

وما اجدر اولئك الشبان بدراسة المعتزلة ليروا كيف استطاع الدين الاسلامى الحنيف ان يروى غليل فكرة المعتزلة (الراسيونالية) وان يزيد في إيمانهم به رسوخا، مع ان المسيحية لم تسع تعقلات مفكري القرن الثامن عشر (الراسيوناليين) ، ولم تشف تعاليمها غليلهم ، ولم تجد الكنيسة إلى إقناعهم سبيلا .



اسس مذهب المعتزلة .

جاء في ص ٢٠ من ج ٤ من مروج الذهب صفحة مفيدة يلخص فيها المسعودي آراءهم في التوحيد ، فيقول :

إن لهم خمسة اصول يتفقون جميعا عليها :

«١» وحدانية الله وطريقة إدراكها :

ا) فالاله لا يشبه الاشياء إذ هو ليس بجسم ولا عرض ولا جثة ولا عنصر ولا ذرة ولا مادة .

ب) بل هو خالق الجسم والعرض وما نعرف عن الذرة والمادة، ومخرج كل ذلك من العدم .

ج) لا تدركه الحواس لا في هذا العالم ولا في الآخر .

د) لا يوصف بالمساحة، اي ليس له اتساع ولا طول ولا كبر ولا صغر .

ه) ليس له زمان ولا مكان ولا اول ولا نهاية

و) انه قديم خالد سرمدي، وكل شيء عداه مخلوق .

«٢» مبدا الاختيار أو خلق الافعال :

ا) انه لايحب الشر .

ب) انه لا يخلق اعمال العباد ، لكن الناس يخضعون لاوامره و يبتعدون عما نهاهم عنه بالقوة التى أعطاهم إياها وخلقها فيهم .

«٣» الوعد والوعيد :

ا) ان الله لايغفر لمرتكبى الكبائر الا اذا تابوا .

ب) ان الله لايخلف وعده كمالايخلف وعيده، فكلمته لا تتغير.

«٤» المنزلة بين المنزلتين :

اي ان مرتكب الكبائر ليس بمومن ولا بكافر ؛ بل إنه فاسق (وكل الاتقياء قد اجمعوا على هذا الاسم)

«٥» وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر :

ا) وهذا واجب يتحتم القيام به على الجميع، كل على قدر طاقته ، فاما بالسيف واما بطرق اخرى. (١)

---

(١) والى هذا المعنى نفسه يشير الحديث الشريف «الصحيحان» «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان»

ب) انه لا فرق بين الجهاد ضد الكفار و الجهاد ضد صاحب الكبائر « الفاسق » .

*

* *

هذه هي النقط التي تتفق عليها جميع فرق المعتزلة ، ولا تميز بعضهم عن بعض إلا نقط ثانوية ، يقول المسعودي إنه قد تكلم عنها في كتبه الاخرى . لكن و يا للاسف ، قد ضاعت هاته الكتب.



ءاراء المعتزلة

وهنا ياتي (م كارا) بءاحكى أبو المحاسن [ج ١ص٣٤٨] عن المسألة التى وقعت بين واصل بن عطاء والحسن البصري وكانت سبب اعتزال واصل وإطلاق لفظة معتزلة عليه وعلى أتباعه ، أرى انها مسألة معروفة لانحتاج إلى ذكرها هنا خصوصا وأن المؤلف لم يبين فيها أية فكرة وإنما عرضها عرضا ، ولهذا أنتقل بكم إلى مابعدها .

*

* *

لقد سمى المعتزلة أعداؤهم بالقدريين لانهم ينسبون أعمال الانسان الى إرادته الشخصية ويرفضون القول بخضوعها للقدر ، وهذا الاسم فى الحقيقة - كما لاحظوا ذلك أنفسهم - ينطبق على نظرية خصومهم الذين ينسبون أعمال الانسان الى قدرة الله .

وقد أطلق المعتزلة (١) على انفسهم اهل العدل والتوحيد

(١) للاستاذ احمد امين (فجر الاسلام ج ١ ص ٣٣٨) دراسة مفيدة حول تسميتهم بالمعتزلة .

لأنهم يقولون :

ان الله تعالى يفعل وجوبا ماينفع الانسان، ويجازى - وجوبا - على الفضيلة (وهذا مايسمونه بالعدل) .

ويرفضون الاعتقاد بصفات حقيقية وقديمة ثابتة في جوهر الله ، وذلك خوفاً من ان تجعل هذه الصفات تعدداً في جانب الله (وهذا ما يسمونه بالتوحيد) .

ويقررون جميعاً :

ان القدم صفة خاصة بالله ،

وينفون عنه الصفات المضافة إلى جوهره .

كما يعتقـدون أن كلام الله (القرآن) مخلوق ومركب من حروف وأشكال ،

وأنه لا يمكن أن يرى أحد الله في الدار الآخرة بعيـون الجسد .

ويلزمه تعالى أن يمشي العالم بحكمة ؛ وان لا يعمل إلا ما فيه الصلاح ،

كما هـو ملزم ايضاً بأن يجازي على الحسنة وعلى التـوبة، وان يعاقب اصحاب الكبائر .

وبعد أن تكلم الإيجي عن أصل المعتزلة وعن العقائد التى هم متفقون عليها ، انتقل الى كلام مفصل عن طوائفهم الكثيرة :

« إن المعتزلة (بالرغم عن كونهم متفقين على هاته النقط الأساسية) يختلفون في أخرى ، فينقسمون إلى عشرين مدرسة ، كل واحدة منها تكفر الأخرى . »



مختلف مذاهب المعتزلة

ثم ياخذ الإيجي يعدد تلك المدارس ويعطي ملخصا عن آرائها، وسنرى منها الثلاثة الأولى، ونشير هنا إلى أن الشارح السيد الشريف الجرجاني يصرح بأن المعتزلة قد تأثروا بكتب الفلاسفة القدماء (١)

*

* *

المدرسة الاولى:

الواصليون وهم أتباع واصل بن عطاء، ينكرون صفات الله، يقول الجرجاني إنهم اعتنقوا هذه المبادئ بعد قراءة كتب الفلاسفة (١) لكنهم يثبتون لله العلم والقدرة ويجعلونهما صفتين اساسيتين وهاتان الصفتان في نظر الجبائي إيضاح لكنه الله الدائم،

---

(١) الفلاسفة القدماء، أو الفلاسفة (فحسب) أو (القدماء) هم اليونانيون (من باب التغليب) وأعلام الفلسفة الإسلامية إذ ذاك وهم الكندي والفارابي وابن سينا.

وحالات وأقانين فى نظر أبى هاشم .

وترفض مدرسة واصل تعلق قدرة المرء بإرادة الله ، ولا تنسب الشر لله .

وتقول بأن مرتكب الكبائر فى منزلة بين المنزلتين (ليس بكافر ولا بمؤمن) .

ولهم آراء خصوصية في خلافة عثمان وفي الإمامة .

☆☆☆

المدرسة الثانية

وهى مدرسة أبى الهذيل ، أتى هذا العالم جيلين بعد واصل ، ويعد ، بعد ابن عطاء ، الرئيسَ المهم عند المعتزلة ، فقد حمل رايتهم وأيد طرقهم .

ومذهبه أن الأشياء ، التى قضى بها الله ، والمخلوقات كل ذلك سيفنى (هذه فكرة لاتبعد عن رأي جهم (٢) القائل بأن الجنة

(٢) هو جهم بن صفوان الخراسانى ، وله مدرسة اشتهرت تحت اسم الجهمية ، وهو من زعماء الجبرية الذين يدعون أنه لا اختيار للانسان ولا قدرة ، ويعد جهم من المعتزلة مع أن هؤلاء لايقولون بالجبر وذلك لاتفاقه معهم على نفى الصفات عن الله وعلى خلق القرءان ، فقد صرح بأن كل ماورد فى القرآن من صفات الله (سمع ، بصر ، كلام ، . .) يجب أن يؤول إذ لايصح وصفه تعالى بصفات تشبهه بخلقه ، ويبنى على

والنار سيفنيان) .

وأن أعمال أهل الجنة والنار يجب ان يخلقها الله لأنه إذا كانت متعلقة بأصحابها (المومن منهم والكافر) يكون هؤلاء مكلفين أيضاً ويجوز على هـذا إمكانية الجزاء والعقـاب ، مع أن هـذه الامكانية لا توجد فى الدار الاخرى .

وتزيد هذه المدرسة قائلة :

إن أهل الجنة وأهل النار سيصيرون إلى حالة سكون دائم يحتوي على نعيم المنعم عليهم وعلى آلام يشـقى فيهـا المغضوب عليهم ،

وأن الله عالم بعلم هو هو ،

هذه الفكرة ان القرآن مخلوق لان نفى الكلام عنه تعالى ينفى طبعا ان يكون القرءان كلام الله القديم ، على أن بعض كبار المعتزلة كانوا يتبرأون من مذهبه ، قال أحدهم وهو بشر بن المعتمر :

« ننفيهم عنـا ولسنا منهم ❁ ولا هم منـا ولا نرضاهم
إمامهم جهم ومـا لجهم ❁ وصحب عمرو ذي التقى والعلم ؟ . »

وذو التقى والعلم هو عمرو بن عبيد من كبار رؤساء الاعتزال ومؤسسيه.

وبهذه المناسبة أنبه الى مقال ممتع للاستاذ الامـام بالعروة الوثقى ، عنوانه (القضاء والقدر) لاتخلو قراءته من فائدة لمن ليس له استقرار فكري فى مسألة الجبر والاختيار .

وقادر وقدرته هي عين ذاته .

وانه يريد بارادة ، وإرادته صفة ليست فى مكان (وقد سبق واصل إلى هذه الفكرة)

وان كلمة « كن » التي هي اساس الخلق ليست في مكان ، أما الكلام الآخر من أمر ونهي وأمثال وغير ذلك فكله فى مكان.

ولهذه المدرسة التي نتكلم عنها آراء خصوصية فيما يتعلق بعلم الحديث ، فقد كانت تنتقده.

مات أبو الهذيل الملقب بالعلاف سنة ٢٢٦ هـ .

✡✡✡

المدرسة الثالثة

هي مدرسة النظام (١) الذي قال عنه الجرجانى إنه أحد شياطين القدرية ، درس الفلاسفة القدماء ومزج أفكارهم بأفكار المعتزلة ، يقول اتباعه :

إن الله لا يمكن ان يفعل بالعبد غير الصالح والاصلح.

وانه تعالى لا يمكنه ان يضاعف او ان يخفف العقوبات والآلام

---

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار أستاذ الجاحظ في علم الكلام، ولد [بالبصرة سنة ١٨٥ وتوفي ٢٢١] كان حاد الذهن دقيق الاستنباط شاعراً كاتبا .

ويظنون ان الوسيلة الوحيدة لابعاد الشر والفواحش عن الله هي تجريده من السلطة عليها، قال الشارح : فمثلهم كمثل من يرتمي بنهر حتى لا يبلله ماء المطر.

وقد قالوا ان معنى أن الله «يريد عمله» انه يخلقه طبقاً لما سبق في علمه،

وان معنى أن الله «يريد عمل العبد» انه يامر به، فعندهم ان الانسان هو العقل وإنما الجسم آلته (فكرة أخذوها عن الفلاسفة).

ويقول النظام بأن العقل جسم لطيف ينصب من الجسد كما ينصب ماء الورد في الوردة، والسمن في الحليب، والزيت في الجلجلان، فالاعراض والالوان والاذواق والروائح أجسام في نظرهم.

وأما المادة فهي مجموعة اعراض، فمادة العلم والجهل والمعصية والكفر والايمان واحدة (١)، هذه فكرة توجد عند

---

(١) ان رأي النظام في الاخلاق أنه ليست لها قيمة ذاتية، بل هي نسبية تختلف باختلاف الاديان والبيئات، وقد بسط هذا الراي البغدادي ورد عليه متهكما :

« وعليه، يكون من قال للنظام انه ابن زنى كمن قال له

الفلاسفة لكنهم يقولون بأن ذلك صورة تنطبع في القوة المفكرة:

قد خلق الله الاشياء دفعة واحدة في مرة واحدة على الشكل الذي هي عليه الآن الصور والنباتات والحيوانات والناس، فخلق آدم لم يتقدم على خلق ذريته، لكن الخالق قد حجب المخلوقات وستر بعضها في تقدم بعض، ويرجع تقدم هذا وتأخر هذا الى ظهورهما فحسب، وهذه فكرة سبق اليها أيضاً الفلاسفة حين دراستهم لمسألة الخلط الاول والتزميل والبروز (١)
Le mélange inétial, l'enveloppement et l'extériorisation)

انه ابن حلال ...»

ويسوءنا ان نرى البغدادي يرد على النظام دون أن يتصور رأيه تصويراً تاماً. ولنظرية النظام انصار من علماء الاخلاق بأوروبا كثيرون (انظر كتاب كيفيليي Cuvilier مثلا الجزء الثاني في الاخلاق (Manuel de Philosophie tome 2)

(١) وقد اخذ هذه الفكرة ملبرانش (Malebranche) الذي يقول بأن الاسباب [الموجبات] تندمج الى مالانهاية له ثم ينفصل بعضها عن بعض وكأنها مجموعة أغشية ه (تعليق المسيو كارا).

(أ) Nicolas de Malebranche [١٧٢٥ - ١٦٣٨] ازداد ومات بباريز، ويعد فيلسوفاً نظرياً وطبيعياً. كان شغوفة بآراء «ديكارت»، وآثاره هي:

البحث عن الحقيقة (Recherche de la Vérité) وكتاب التأملات المسيحية (Les Méditations Chrétiennes) ويمتاز على الخصوص بدراسات لماوراء الطبيعة

وقد ادعى أفراد هذه المدرسة بأنه فى قدرة الانسان أن ياتى بشيء جميل كالقرآن بل بما هو أحسن منه، لان جمال القرءان ليس في أسلوبه بل فيما فيه من إيضاحات لغوامض الكون.

وكانوا متشككين فى صحة الاحاديث المروية،

ويدعون ان التواتر قابل للغلط وانه لا يمكن أن يعتمد على الاجماع والقياس.

ويعترفون بحق علي.

*

* *

نرى مما تقدم مقدار حيوية الحركة الفكرية عند هذه المدارس ومقدار ما وصلت اليه من دقة وحذاقة فى البحث.

وليس في الحقيقة ملخص الايجي ولا ملخص الجرجاني ولا مقالات الشهرستاني، الا حطام جهود فكرية ملأت اكثر من قرنين

***

«ب» وهذه الفكرة نفسها عندنا بالقرءان العظيم [الآية ١٧٢ الحزب ١٨ سورة الاعراف]:

«وإذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم واشهدهم على انفسهم: الست بربكم؟ قالوا. بلى»

ويرجع الفضل فى استنتاج هذه الفكرة من القرءان الى العلامة القاضى سيدي محمد السائح فهوالذي ارشدنى إليها

ومشاهير المعتزلة الآخرين هم : الجاحظ(١) الذي نعرف آثاره في نواح اخرى اكثر منها في هذا الميدان ، والجبائيان (الاب والابن) ، لكن مذهب المعتزلة أيام الجبائي لاقى معارضة فعالة ضعفت شوكته وأبطأت سيره ، وكان على رأس هذه المعارضة الامام الاشعري الذى قضي على ازدهارها .



---

١) ابو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

إن افكار الفرقة الجاحظية « في ميدان الاعتزال » لم تروج رواج مصنفات ابى عثمان العلمية والادبية التي قال عنها ابو الفضل بن العميد الوزير : « كتب الجاحظ تعلم العقل اولا والادب ثانيا . »

الخلفاء والصراع المذهبي

كان الخلفاء يشاركون في هذه الخصومات مشاركات عملية، فلم يكتفوا بجمع العلماء عندهم وحضهم على المناظرات بحضرهم، بل كانوا يقومون بدور مهم في هذه النزعات المذهبية، وكثيرا ما أوقفوا المشاجرات أو فرضوا آراءهم الشخصية، فيما يخص الإيمان، بفضل ما كان لهم من سلطة معنوية (لأن الخليفة هو الرئيس الديني) وما كان لهم من نفوذ مادي مطلق، فدراسة هذا الدور الديني الذي لعبه الخلفاء لاتخلو من أهمية، فإذا كانت تحط أحيانا من رأيهم ومن تسامحهم، فهي على الأقل تعيننا على تفهم سير هذا الهيكل الديني الشاسع الأطراف الخاضع لحكم الإله (مبدئيا): الإسلام.

والمسألة التي اهتم بها الخلفاء في الوقت الذي نتحدث عنه هي مسألة خلق القرآن، فأسسوا لهذه القضية شبه ديوان التفتيش، وكانوا يديرونه بأنفسهم، فيسألون العلماء ويعاقبونهم

عقوبات صارمة ، ومن هنا مسألة (المحنة) المشهورة .

*

* *

وبعد هذا يسترسل (م كارا) يبسط مسألة خلق القرءان وما لاقت من تأييد واعتراض ، ومحنة الإمام أحمد بن حنبل ، أرى ان القراء يعرفون هذه الناحية ، أو على الأقل يمكنهم الرجوع اليها بسهولة ، فالذي يهمنا هي آراء (م كارا) وملاحظاته ومقارناته ، أما ترجمة وقائع تاريخية معلومة فمن باب «هذه بضاعتنا ردت إلينا» .



إظهار حق

تسـامح الخلفـاء

يقول م كارا عن الخلفاء (في الفصل المتقدم):

« ... فدراسة هذا الدور الديني الذي لعبه الخلفاء لاتخلو من أهمية، فإذا كانت تحط أحيـانا من رأيهم ومن تسامحهم، فهي على الأقل تعيننا على تفهم سير هذا الهيكل الديني الشاسع الأطراف الذي هو الإسلام. »

إن هذا الدور لايحط في شيء من قيمة هؤلاء الخلفاء، فهو إن دل على شيء فإنما يدل على وفرة ثقافتهم التي كانت تمكنهم من المشاركة في مثل هذه المناقشات الفلسفية العالية.

لا أنكر ماكان (بعضهم) يظهره أحياناً من تعصب لآرائهم، وهذا شيء غريزي في الإنسان منذ كان، ونشاهده اليوم بكثرة عند الأحزاب المختلفة في مبدئها في الأمة الواحدة، فكم من أب يعـادي ابنه، وأخ شقيقه، لأن أحدهما شيوعي مثلا والآخر رأس مالي...

وهذا (فولطير Voltaire) ، فمع شهرته العالمية بحرية فكره وهجومه العنيف على التعصب، لم ينج من هذا الداء الذي حاول حياة طويلة معالجة المجتمع منه. فلقد كتب مرارا في لهجة حادة وبغضب ضد من خالفوه الرأي، وتمنى مرارا أن يسجن الذين لم يومنوا بمبادئه أو انتقدوها. ولعمري أين هذا من التسامح؟

أما اذا تصفحنا تاريخ الحركة الفكرية بالغرب فى القرون الوسطى فإننا نجد المدهشات. فهذا يحرق لمجرد قراءته لكتاب لايقول به البابا، وهذا يشنق لأنه صرح بفكرة لاتقرها الكنيسة (ولو فى الميدان العلمى الصرف، كدوران الأرض مثلا) ومحنة (غاليلى Galilée) (١) الايطالى أشهر من أن تذكر وكذلك مسألة معاصره (ديكارت (١) Descartes) الفرنسي وما قاساه في سبيل أفكاره وما نصبت له ولكتبه من عراقل (انظر تفصيل ذلك في كتاب الدكتور جورج بونى عن ديكارت GeorgsBonnet)، وهذان الرجلان عاشا بعد الانبعاث الإيطالى والنهضة الفرنسية، في القرن السابع عشر (وما بالعهد من قدم !...)

من هذا يظهر أن (هذا البعض) من الخلفاء لم ياتوا بما

---

(١) سياتى الحديث عنهما .

يخجل (نسبياً) .... بل على العكس قد سجلت أكثريتهم في تاريخ المعرفة مواقف ، خالدة وأعمالاسامية فى سبيل الرقى العام ، وقد كانوا يجعلون الإسلام مدنية وثقافة مشتركة لاعقيدة وتعصبا ، أو دينا وجمودا ، ومن هنا أخذ الكثير من أحرار الفكر ، إسرائيليين ومسيحيين وفرس ، بحظ وافر من المعرفة والتفكير الحر ، ووجدوا أكبر تشجيع وعناية فى مكتبات هؤلاء الخلفاء و (صالوناتهم) ، وتاريخ (دار الحكمة) وما بذله المامون لتراجمتها لأكبر دليل ، فمنهم ، وهم كثر ، بختيشوع وآل حنين وآل نوبخت .....

وقد أسهب أبو الفرج الأصبهانى بكتاب الأغانى ، في التحدث عن مجالس الخلفاء الأدبية والفنية وعن مناظراتهم العلمية ، كما استوعبت الكثير من ذلك مختلف كتب الآداب والتاريخ ، وخص كذلك الدكتور أحمد فريد رفاعى في المجلد الأول من تاليفه (عصر المامون) فصلا عن تلك الاندية وتلك المناظرات وصورها تصويراً يجعلها أقرب مايكون « بصالونات » فرنسا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ومن تسامحهم أنهم كانوا يدنون منهم الفنانين والادباء والعلماء ، من المسلمين وغير المسلمين ، ويمنحونهم ثقتهم وتأييدهم بل

كثيراً ماقلدوهم أعلى المناصب في الامبراطورية الإسلامية ، واذكر على سبيل المثال : الأخطل النصراني الشاعر ومنكه الهندي وسعيد بن يعقوب الفيومي (وهو أول يهودي الف بالعربية في العقائد ، يدعو في كتابه الى تحكيم العقل وعدم الجمود مع النصوص الدينية) ، وموسى بن ميمون الملقب بأفلاطون اليهود الذي تربى بين أحضان الاسلام وارتوى من ينبوع الثقافة الاسلامية .

*

* *

هذا من الوجهة الدينية والعلمية والفنية ، أما من الناحية السياسية ، فيشهد التاريخ بأن في عصر المدنية الاسلامية ظهرت الاحزاب المتباينة ، وتعددت الطوائف وكثرت النحل ، الشيء الذي يجعلنا نعتقد أن حرية الفكر كانت سائدة إذ ذاك بفضل تسامح أصحاب الحل والعقد .

ويروي لنا صاحب الاغاني الكثير من هجاء الشعراء لمعاصريهم من الحكام والخلفاء ، من هؤلاء الهجائين سليم بن يزيد العدوي الذي كان يعلن سخطه على الوزراء ، بل يصرح بذم الخلفاء ، يقول عن أبي جعفر المنصور وعن وزرائه :

« حتى متى لانرى عدلا نسر به ❁ ولا نرى لولاة الحق أعوانا

مستمسكين بحق قائمين به ❁ إذ اتلون أهل الجور ألوانا ؟
يا للرجال لداء لادواء له ❁ وقائد ذي عمى يقتاد عميانا !

ولما قيل للمأمون (وهو خليفة) :

« إن دعبلا الخزاعي قد هجاك . »

أجاب : « وأي عجب في ذلك ؟ هو يهجو أبا عباد ولا يهجوني أنا ؟ ومن أقدم على جنون ابي عباد اقدم على حلمي .

وامثال هذا كثير وكثير جداً ، بيد اننا نلاحظ ان كل هؤلاء الهجائين والمتهجمين على الخلفاء لم ينلهم سوء ، لانهم كانوا يتمتعون بحرية القول كالصحافيين في بعض الامم لهذا العهد .

☆☆☆

وما اجدرني هنا ان افطن الى ان لحرية الرأي حداً – حتى في القرن العشرين ، وعند من يسمحون بها لشعبهم من الدول الراقية – وانها لا تعطى جزافاً بلا قيد ولا شرط ، بل ان لحرية الراي تخوماً يجب على المرء ان يقف عندها ، فكل حرية تجلب للامة الوبال والدمار يجب ان توقف بالعنف ، فمن ذلك فتك بعض الخلفاء بوزرائهم ، محافظة على امن الدولة ، لما شعروا بهم يغزلون في السراء لصالح الاحزاب المعادية للخليفة او

لاسرته (فمن حفر حفرة لغيره وقع فيها (١))، وكذلك حارب الخلفاء كل من شكوا في حسن طويته لدولتهم أو لدينهم، كأولئك الذين تظاهروا بالإسلام وأخذوا يدسون له في الخفاء، فهذه أنواع من الحرب السرية ومن واجب الذين على عاتقهم مسؤولية الأمة أن يواجهوها، وأن يقضوا على القائمين بها، دون أن يكون هذا العمل حاجزا بين الأمة وحرية الرأي، بل على العكس، إن القضاء عليهم من دعائم هاته الحرية، لأنها لا تعيش وتزدهر الا مع السلم والأمن.

فإذا كان التصريح بآراء جديدة مبعثه البحث لا التشويش، وغايته الوصول الى الحقيقة لا الدس والغدر، عاش صاحبه آمناً مطمئناً، فالمعري الذي حمل على جميع الأديان، والمتنبي الذي تطاول حتى ادعى النبوة، وابن سينا والفارابي الذان حاولا ملاءمة الدين مع الفلسفة، والرازي الذي أنكر النبوة والأنبياء وزعم أن كتب الإغريق القديمة أنفع من الكتب المقدسة، والحاتمي الذي جعل درجة الصوفية أعلى من درجة النبوة وحاول توحيد جميع الأديان لان غايتها واحدة، كل أولئك زعماء في حرية الرأي، وكلهم استطاعوا أن يعيشوا تحت أكناف الاسلام، وان يصرحوا بآرائهم الغريبة التي سجلت حتى وصلت إلينا.

---

(1) مثل مغربي

الامام الاشعرى

ثم ياتى بعد ذلك فصل عن حياة الامام الاشعرى وموانفه ضد المعتزلة ، بعد أن كان منهم ، ورجوعه الى مذهب أهل السنة ومقاومته لفكرة خلق القرءان (وهذا كله معلوم لانطيل الوقوف فيه) ، قال م كارا :

لقد جعل الأشعرى حداً لذلك النوع من الاباحة ، وما نتج من التباس عن تفكير المعتزلة الذي تعدى حدود حرية الرأي ، وأعاد لعلم الكلام وحدته ، وضبط السنة وحددها ، فالاشعرى قبل الغزالى هو الشخصية الممتازة في علم التوحيد العربى .

ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ من أسرة يمنية كانت تتمتع بشهرة طيبة ، ومن أجداده أبو موسى الاشعرى الصحابى الذي زعموا أنه كان يشتغل بالبحث فى التوحيد وكان يعضد آراء أهل السنة ضد عمرو بن العاص فاتح مصر .

*

* *

تقدم للاشعرى أنه كان معتزليا وأنه تلمذ للجبائى ، (وهو شيخ الاعتزال المبرز) ، فكتب سفراً ضخماً دفاعاً عن مبادىء المعتزلة . ثم انتقل فجأة إلى مذهب أهل السنة وعمره إذ ذاك أربعون سنة .

ولسبب هذا الانقلاب الفجائى تفاسير مختلفة ، من ذلك (مايوجد فى حكاية تنسب إليه) أنه شاهد النبى ثلاث مرات متتابعة فى رؤية [!] وأنه طلب منه ان يتخلى عن المنطق ليعتنق السنة ، فلاحظ الأشعرى ان الاحاديث محل للشك كما يرى المعتزلة ، فأجاب النبى بأنه على العكس ، فالشك يتسرب إلى الحجج العقلية .

هذه حكاية غير متحققة الوقوع ، فأقرب منها إلى القبول كون الاشعرى لاحظ ان المناقشات بإفراط لابد ان تصل إلى سوء العقبى ، من الناحية الدينية ، كما اتفق انه اختلف مع استاذه فى بعض النقط ، يقول [D'ohsson (١) دوهسون] إنه انفصل عن الجبائى لمسألة الصبيان :

سأل الاشعرى استاذه هل براءة الصبيان تستلزم لهم الخلود

---

١ كاتب تركى .

في النعيم فأجاب شيخ المعتزلة بالسلب معللا ذلك بأنهم لم يحصلوا على اجر الاعمال فيخولهم الجنة .

فلاحظ الاشعري : وهل يعد جريمة في حقهم كون الله لم يترك لهم الوقت لذلك ؟

فأجاب الشيخ : بلا شك ، لانه سبق في علمه تعالى انهم لو كبروا لصاروا كافرين .

الاشعري : فعلى هذا ، كل من عاش [وقد صدرت منه ذنوب طبعا] يمكنه ان يحتج على الله لانه لم يمته صغيراً .

لم يجد الجبائي لهذا جواباً ، فودّعه الاشعري .

هذه نقطة من نقط المناقشات المعروفة في علم الكلام .

*

* *

لم يودع الاشعري البحوث المنطقية [اى الكلام] بالمرة ، رغم خروجه من مذهب المعتزله ؛ وإنما نظمها وعدلها وحصرها في حدود تتفق والسنة ؛ نعم ، سيبقى ممثلا للتوحيد المبني على البحث العقلي بيد انه توحيد في دائرة السنة ؛ اما الغزالي فسيذهب الى ابعد من هذا في الرد على اصحاب الكلام ، وسيجعل في التوحيد للاخلاق والعاطفة حظاً كبيراً .

لقد الف الاشعري كتباً عديدة انتقادية لم يحتفظ لنا ابن عساكر الا بعناوينها؛ فيذكر منها اكثر من عشرين، اولها كتاب ضد الزنادقة والمارقين من الدين، كالفلاسفة والطبيعيين والهيوليين والمجسمين، وفيه دحض لما عليه البراهمة واليهود والمسيحيون والزرادشتيون، وهو كتاب في ١٢ سفرا، وقد لخصه المؤلف، لكن ويا للاسف، قد ضاع هذا الكتاب مع ما ضاع من منتوجات الاشعري، فلولا ذلك لاستفدنا منه اليوم فائدة ثمينة.

*

* *

لم يبق لنا من مصنفات هذا العالم الا خمسة او ستة كتب، [راجع هذا الموضوع عند المستشرق الالماني بروكلمان]، منها كتاب الإبانة، يتكلم فيه عن الله وإرادته واثبات رؤيته وعن القرآن والإيمان، والقدر، والامامة؛ وهناك باب في إبانة قول اهل الزيغ والبدعة، وآخر في إبانة قول اهل الحق والسنة، ونعرف فكرة الاشعري من عشر صفحات كتبها عنه الشهرستاني ومن نبذة لابن عساكر في نفس الموضوع، ونعثر هنا وهناك في كتب التوحيد (الفلسفي) على إشارات الى الاشعري والاشعريين، كما عند التفتزاني والسيد الجرجاني

بعد هذا يبسط (م كارا) عقائد الاشعرى ، أرى انها معلومة ، خصوصا وان جل المغاربة أشعريون (عن طريق الوراثة في اغلب الحالات) !...

وتكميلا للفائدة أزيد هنا نظرة عن كتاب الابانة ، وأشير الى مؤلفين آخرين من مؤلفات الاشعرى :

*

* *

الإبانة عن أصول الديانة :

طبع سنة ١٣٤٨ هـ ، عنيت بنشره ومراجعة أصوله والتعليق عليه إدارة الطباعة المنيرية المصرية ، وهى طبعة متقنة ، وطبع قبل ذلك بحيدر آباد سنة ١٣٢١ هـ .

ويقع فى ٧٤ صفحة من الحجم المتوسط .

وهو مجموعة ردود يوجهها الأشعري ضد المعتزلة بالخصوص ، ويتبع أحياناً طريقة في المحاجة لطيفة : يورد أسئلة ويجيب عنها ، فانظر مثلا عنوان باب من أبوابه :

(باب الكلام في الارادة ، والرد على المعتزلة ، وإيراد أسئلة والجواب عنها) .

وهذا من أحسن نماذج العناوين .

مقالات الاسلاميين:

ومن جملة كتب الاشعرى التى سلمت من اغتصاب الايام (مقالات الاسلاميين) .

كانت نسخة خطية منه بمكتبة أيا صوفيا ، وطبع بتركيا منذ سنوات قليلة ، يقع في سفرين .

*

* *

استحسان الخوض فى الكلام :

رسالة صغيرة (١٢ صفحة من الحجم الصغير) طبعت بحيدر آباد سنة ١٣٢٣ هـ .



القسم

الثانى

العقائد

عقائد النسفى

لم يكن للاسلام جماعات تحدد معتقداته كمجامع الأساقفة عند المسيحية ، لكن الكثير من علمائه قد حللوا هذه المعتقدات فى مصنفات قصيرة تسمى بالعقائد (راجع مقالنا في هذا الموضوع بدائرة المعارف الاسلامية) ، منها مصنف للاشعرى ، وآخر للغزالى (١) وثالث لابن تومرت مهدى الموحدين (انظر م كولدزيهر Goldziher : كتاب محمد بن تومرت - ١٩٠٣ - طبعة الجزائر) ، وآخر لبعض الصوفيين كسيدي الجيلانى (١) ، بيد أن أشهر هذه المصنفات هى عقائد النسفى ، العالم الحنفى الذي عاش فى القرن الثانى عشر ، (وهناك نسفيان قد شرح أحدهما الآخر ، فالاول هو أبو حفص عمر النسفى المتوفى سنة ٥٣٧ ، راجع كتابنا - مفكرو الاسلام ج ٣ - فى فصل الحديث) ، وهذا التصنيف (أي عقائد النسفى) بمثابة ملخص للعقيدة الاسلامية ، فله من

---

(١) : انظر الفصل الذي يلى .

هذه الناحية شبه (بكريدو [١] الذى عندنا) على أنه أطول منه وأقل منه تنظيما ، وبه ٥٨ عقيدة ، وقد اشتهر كثيرا ، فهو (كما يقول دوهسون D'ohsson) بالمدارس العمومية الحكومية بتركيا بمثابة الكاتيشيسم [١] عند النصارى .

ترجم [دوهسون] هذه العقائد وأضاف إليها تعاليق تاريخية مفيدة ، وهذه التعاليق هى محتويات الجزء الاول من كتابه : مشهد الامبراطورية العثمانية [نشر هذا المصنف وطبع بالشرق خصوصا باسطمبول عام ١٣١٣ مع شرح التفتزانى] ، ونأتى هنا بجمل من هذه العقائد لنتصور مقدار الصبغة الفلسفية التى فى هذا المصنف الصغير .

يستهل النسفى بمقدمة يتكلم فيها عن العلم :

« حقائق الاشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافاً للسوفسطائية ، وأسباب العلم للخلق ثلاثة :

١] الحواس السليمة .

٢] الخبر الصادق .

٣] العقل .

ثم يفسر النسفى هذه الاسس الثلاثة المعرفة :

---

(١) انظر الفصل الذي يلي .

١) فالحواس السمع والبصر والشم والذوق واللمس .

٢) والخبر الصادق على نوعين :

أ ـ الخبر المتواتر ، وهو الثابت على ألسنة قوم لا يتصور

تواطؤهم على الكذب ، وهو موجب العلم الضروري .

ب ـ خبر الرسول المؤيد بالمعجزة وهو يوجب العلم الاستدلالى

٣) العقل سبب للعلم ايضا ، وما ثبت منه بالبديهة فهو

ضرورى ، كالعلم بان كل الشىء أعظم من جزئه »

وبعد تقرير النسفى لهذه الاسباب الثلاثة يرفض القول بأن الالهام من اسباب المعرفة مع كون الصوفيين يجعلونه الاساس الاوحد للمعرفة

وتبتدىء بعد هذا العقائد :

الاولى ان العالم حادث : « والعالم بجميع اجزائه محدث »

ثم يبنى على هذا عقيدتين يظهر انهما اقرب الى الفلسفة منهما الى علم الكلام ، وهما :

أ ـ ان العالم مركب من اعيان واعراض : « فالاعيان ماله

قيام بذاته ، والعرض مالا يقوم بذاته »

ب ـ مسألة (L'atomisme) اي تركيب المادة من ذرات

« الجوهر هو الجزء الذي لا يتجزء » .

وعلى هذا تكون النظرية القائلة بتركيب المادة من ذرات من قبيل المعتقدات [١] .

والعقيدة الثانية تتعلق بالاله: « المحدث للعالم هو الله الواحد، القديم، الحى، القادر، العليم، السميع، البصير، المريد » .

هذه هى الصفات الايجابية .

ثم يسرد المؤلف الصفات السلبية :

« ليس بمصور، ولا محدود، ولا متبعض، ولا معدود.. لا يشبهه شيء ... »

ثم يزيد بعض الصفات الايجابية - زيادة على ماتقدم، ويعيد اخرى تقدمت :

« العقل والقدرة والحياة والقوة والبصر والكلام، وهو متكلم بكلام هو صفة له ازلية ليس من جنس الحروف والاصوات، وهو صفة منافية للسكون [٢] »

---

(١) إن نظرية (الاطميسم) Atomisme ليست من المعتقدات مباشرة بل من مجرد البحث كالمنطق بالنسبة للتوحيد ، فقواعد المنطق ليست هى نفس علم الكلام ، كذلك هذه الفكرة هى حجة فلسفية ترتكز عليها بعض العقائد وليست من نفس العقائد.

(٢) قارن بين هذا وبين مايقوله الغزالى في هذا الموضوع بالفصل الذي يلى.

اما العقيدة الثالثة فتختص بالقرءان :

« القرءان كلام الله تعالى غير مخلوق » .

هذه العقائد الاولى هى المهمة، وعليها يرتكز الإيمان ،

وليست العقائد الباقية الا تحليلا لها ، وموضوعها :

التكوين وإرادة الله ورؤيته : « ورؤيته تعالى جائزة

فى العقل واجبة بالنقل » .

ثم تاتى عقائد تختص بالآخرة كعذاب القبر وسؤال منكر

ونكير والبعث وما يتعلق به ...

ثم يصل بنا النسفى الى مسألة مرتكب الكبائر - التى راينا

نظر المعتزلة فيها - فيقول :

« والكبيرة لا تخرج العبد المومن من الإيمان ولا تدخله

فى الكفر ، واهل الكبائر لا يخلدون في النار » .

وننتقل بعد هذا الى الايمان والاعمال والاسلام : « والايمان

فى الشرع هو التصديق بما جاء النبى عليه السلام به من عند الله

والاقرار به ، واما الاعمال فهى تتزايد في نفسها ، والايمان لا

يزيد ولا ينقص ، والاسلام والايمان واحد [١] » .

---

(١) اما صريح القرءان فيخالف هذا التصريح : « قالت الاعراب

آمنا ، قل : لم تومنوا، ولكن : قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم » .

ويتبع هذا بالكلام على النبوة والخلافة والامامة .

واما العقائد التي تاتي بعد العقيدة التاسعة والثلاثين، فهي تتتابع بلا صلة تجمع بينها، تتكلم عن موضوعات مختلفة ، ويمكن بعضها ان يكون تتمة لما تقدم ، نشير منها إلى صلاة الجنازة، وانها تكون على البر والفاجر ، والاعتقاد بالجنة للعشرة المبشرين (العقيدة ٤١) ،

وان تصديق الكاهن بما يخبر عن الغيب كفر (العقيدة ٥٢).

ثم يقول ان ما ذكر النبي من اشراط الساعة حق (العقيدة ٥٦)

وان المجتهد قد يخطيء وقد يصيب (العقيدة ٥٧).

كل هذا الفصل يدلنا على ان النسفي لم يستهن بالفلسفة بالرغم عن كونه عاش بعد الغزالي الذي شن عليها الغارات، كما انه لم يتوق استعمال العبارات العلمية ، مع انه كان يكتب للعامة .

وقد شرح غير واحد مصنفه ، واحسن هذه الشروح هو شرح التفتازاني ، وقد تكلمنا عنه في كتابنا عن الغزالي (١).

فالناحية الفلسفية في هذا الشرح مستفيضة ، وهو نوع من علم الكلام المبني على القياس العقلي ، و نلاحظ هنا إذن ان هذا النوع

---

(١) كتاب للمسيو كارا باللغة الفرنسية .

قد بقى مزدهراً بعد الغزالي ، فللأمم الشرق ذوق حاد في البحوث

الفكرية لا يمكن ان تزحزح عنه .

إن تأليف التفتازاني دقيق جداً ومهم من حيث كثرة

المحاجات الموجهة ضد المذاهب الغير السنية .

ولد العالم سعد الدين مسعود التفتازانى سنة ٧٢٢ بتفتازان [١]

وكان مدرسا بسرخس [٢] ثم نقله تيمورلنك [٣] الى سمرقند [٤]

فمات بها عام ٧٩١ هـ (او ٧٩٧) وتم شرحه على العقائد النسفية

سنة ٧٦٨ [١٣٦٧ م] بخوارزم .

«١» تفتازان : قرية كبيرة من نواحي نيسى وراء الجبل .

«٢» سرخس : مدينة قديمة من نواحي خراسان ، كبيرة واسعة

«وهى بالقرب من نيسابور » .

«٣» انظر الكلام عنه في الفصل الذي بعد هذا .

«٤» سمرقند : قيل إنها من بناء ذي القرنين «!» «انظر ياقوت»

وهى مدينة من مدن التركستان ، كانت مقر حكم الطاغية التتري تيمولنك ،

واشتهرت بمعاهدها العلمية الكبرى ، وتخرج منها كثير من علماء الاسلام ،

وهى الآن نقطة تجارية ذات شأن بين الهند وآسيا الشرقية .

تعاليق

على هامش العقائد

١) كتاب عقيدة أهل السنة :

يقول م كارا فى الفصل المتقدم إن لأبى حامد الغزالى مصنفاً فى العقائد دون أن يعطينا اسم هذا المؤلف ، ويظهر لى انه يشير الى مصنف اسمه (عقائد أهل السنة) ، وهو كتاب صغير جداً ، طبعته مطبعة النيل بمصر فى سنة ١٣٢٣ ه مشروحاً بقلم الشيخ محمد بن يوسف الشهير بالكافى تحت اسم : (كتاب الحصن والجنة على عقيدة أهل السنة) .

جاء في آخر صفحة من هذا الكتاب ص ١٦٢ تقريظ للشيخ التونسى محمد أبى شارب الهلالى (من فقهاء جامع الزيتونة) «.... فإن أعظم العلوم .... علم العقائد .... وإن من أحسن «١» هذه الرسائل وضعاً وأعودها نفعاً ، الرسالة الموسومة بعقيدة أهل

«١» أنقله هنا لانه يعطى صورة صغيرة عن هذا المصنف .

السنة المعزوة لحجة الإسلام والمسلمين الاستاذ أبي حامد الغزالي ،
تلك الرسالة التي جمعت فأوعت ، وعمت بنفعها وما خصت ،
سوى أنها ما كانت لتخلص من لفظ غريب يفتقر إلى إيضاح ،
ومعنى خفي يستدعى مزيد الإفصاح .... »

نقتطف من هذه الرسالة مايقوله أبو حامد عن كلام الله
(انظر الفصل المتقدم ص ٦٩) ، قال :

« .... وأنه تعالى متكلم ، آمر ، ناه ، واعد ، متوعد ، بكلام أزلى قديم قائم بذاته لايشبه كلام الخلق ، فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ، ولا بحرف ينقطع باطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن التوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام ، وأن القرءان مقروء بالألسنة مكتوب فى المصاحف محفوظ في القلوب ، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى ، لايقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والاوراق ، وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف .... »

*

* *

٢) الجيلاني :

هو المولى عبد القادر الجيلاني والجيلي (الجيلالي كما يسميه المغاربة) توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ .

كان من شيوخ الصوفية وله أتباع كثيرون الى يومنا (خصوصا بشمال افريقيا)

وهو مؤلف (الفتح الرباني والفيض الروحاني)، كتاب في التوحيد على طريقة الصوفية، وله كتاب آخر (فتوح الغيب)

*
* *

٣ .. (Credo كريدو)

كلمة لاتينية معناها (أعتقد)، ويترجمونها ب (قانون الإيمان) تطلق على كتاب صغير يضم المعتقدات المسيحية التى تقررها الكنيسة، وهانص هذا القانون :

«أومن بالله الأب القادر على كل شيء خالق السماء والارض، وبسيدنا عيسى المسيح ابنه الوحيد ربنا الذي حملت به مريم العذراء من الروح القدوس وتعذب في زمان (البنطى بيلاطس)، وصلبوه ومات ودفنوه ونزل الى الجحيم، وفي اليوم الثالث قام بين الموتى وصعد إلى السماء وجلس على يمين الله الأب القادر على كل شيء، ومن ثم ياتى ليحاسب الاحياء والاموات.

أومن بالروح القدوس .

وبالكنيسة الكاتوليكية المقدسة .

وبجماعة القديسين .

وبمغفرة الذنوب .

وبقيامة الأجساد .

وبالحياة الدائمة . »

*

* *

٤) اما (Catéchisme كاتيشيسم) فهو يحتوي على تعاليم واسرار الديانة المسيحية الكاتوليكية ، باختصار ، وهى مبسوطة على طريقة السؤال والجواب تسهيلا على العامة والصبيان .

وهامثال من الدرس الاول ، عنوانه : الكتاب المقدس .

سؤال : ماهى الحقائق التى يجب ان نومن بها ؟

جواب : الحقائق التى يجب علينا ان نومن بها هو ماتقرره الكنيسة مما اوحى الله الى الناس .

س : اين توجد هذه الحقائق ؟

ج : يحتوي عليهـا الكتاب المقدس والاقوال المروية عن الحواريين .

(وبالكاتيشيسم) صور ، منهـا صورة الإله وقد تجـلى لموسى ، واخرى تمثل آدم وحواء بالجنة عند وقوع قصة الشجرة، وصورة العذراء ، وغير ذلك ....

والى جانب قسم المعتقدات (كريدو الذي رأينا) والتعاليم ، ياتى قسم خاص بالاخلاق التى يجب ان يتبعها كل مسيحى ، وهي ستة عشر امراً ، منها عشرة من عند الله وستة من مقررات رجال الكنيسة .

ثم هناك قسم ثالث في العبادات .

*

* *

٥) تركيب المادة من ذرات (Atomisme)

فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد كانت مسألة تركيب المادة والبحث عن عنصرها الاول تشغل أكثر من غيرها بحوث الفلاسفة باليونان :

قال أحدهم إن العنصر الاساسى فى المادة هو الماء .

وزعم ثانى أنه الهواء .

وادعى ثالث بأنه النار .

وقال فيثاغور Pythagore (فيلسوف وحيسوبى)

لابل الأعداد .

وبعد هؤلاء أتى ديموكريت Démocrite (فيلسوف يونانى عاش فى القرن الخامس ق م) فقال بالذرات .

وكان من جراء هذه الاختلافات أن تأسس فى القرن الخامس ق م (مذهب الارتيابيين (Le Scepticisme القائلين إنه لاتوجد أية حقيقة ولا يمكن الوصول الى أية معرفة .

٦) تيمورلنك

عرف القرن الثامن للهجرة طاغية جبارا هو السلطان المغولى الشهير تيمورلنك، ويسمى بتيمور (او تيمورلنك اي تيمور الاعرج)

ولد بقرية قريبة من سمرقند سنة ١٣٣٦ م ، ٧٣٧ هـ فى أسرة فقيرة (كان أبوه راعيا) .

خرج عام ٧٦٠ هـ وقضى أيام حكمه في سلسلة حلقات حروب ضد أمراء خراسان وأفغانستان وروسيا ومصر .

غزا الشام واستولى على حلب سنة ١٤٠٠ م فخرج إليه ملك مصر فرج بن برقوق ليدافع عن دمشق ، واستصحب معه في الجيش - كما سيفعل نابليون بونابارت فى واقعة الأهرام عند

حملته على بلاد الكنانة ـ جماعةً من العلماء والقضاة، وفي طليعتهم المؤرخ المغربى عبد الرحمن بن خلدون الذي يقول عن الطاغية:

«يخطىء أولئك الذين يقولون إن الرجل عالم جداً، فهو رجل وافر الذكاء مولع بالمجادلة فيما يعلم وما لا يعلم».

مات هذا القائد التترى العجيب في شعبان سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٥م) فى طريقه نحو الصين ليحتلها، بعد أن عمر أكثر من ثمانين سنة، وكانت مدة حكمه ٣٦ عاماً.

وينسب له بعض الكتاب من الافرنج رسائل في السياسة والعسكرية.



كتاب المواقف

من أهم الكتب التى تتصل بموضوعنا كتاب المواقف للإيجى الذي اشتهر في الشرق فى حياة مؤلفه، غير أنه مايزال تقريبا مجهولا عندنا.

هو عضد الدين الإيجى من علماء الكلام بالقرن الثامن، مات سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥م) بعد أن نال صيتاً بعيداً، فقد شرحت كل مؤلفاته شروحاً وشروحاً، ومن بين أسماء الشراح نجد كثيراً من الاتراك.

طبع كتاب المواقف طبعة جيدة باسطامبول في سفرين ضخمين (سنة ١٢٣٩ هـ) [١] والى جانب متن الإيجى ثلاثة شروح أهمها شرح السيد الشريف الجرجانى، وهذا الشارح نفسه فيلسوف وعالم معروف جداً بالشرق ولد سنة (١٣٣٩م)

---

١) أي سنة ١٨٢٤ م، كما طبع عام ١٨٤٨ الجزءان ٥ و٦ مع شرح الجرجانى بليبزيق Leipzig بعناية Th. Soerensen) سو إيرسى) وبالقاهرة عام ١٣٢٩ هـ «١٩٠٧م».

٧٤٠ هـ وتعرف بواسطة التفتازانى بأحد الامراء من آل جعفر فعينه مدرساً بشيراز (١)، ولما استولى تيمورلنك على هذه البلدة عام ٧٨٩ هـ نقله الى سمرقند. وبعد وفاة تيمور رجع الى شيراز فمات بها سنة ٨١٦ هـ.

وله كتاب في اصطلاحات علم الكلام وخصوصا في التعاريف الصوفية سماه (كتاب التعريفات) وهو مشهور قيم جداً (طبع بالقاهرة عام ١٢٨٣ هـ وطبعه أيضاً Flugel سنة ١٨٤٥ م بألمانيا (بليبزيق Leipzig).

وقد كتب الجرجانى أيضا مصنفا في فلسفة التوحيد كما فعل عضد الدين.

وكتاب المواقف يبحث في علم الكلام، يقول المؤلف في (ج ١ ص ١١) بأن معاصريه لم يعتنوا بهذا العلم كما يجب، فأخذ هو على نفسه أن يقوم بجهود ليحطم أفكار الغزالى في تهديم علم الكلام والحط من قيمته، حتى يصبح هذا العلم فى المنزلة اللائقة به، قال:

---

١) شيراز: مدينة فارسية، وأول من عمرها القائد العربى محمد بن القاسم الثقفي، ثم بنى سورها وأحكم تحصينها فى القرن الخامس. وينسب اليها عدة من مشاهير الفرس والعرب.

« ان أرفع العلوم وأعلاها وأنفعها وأجداها، وأحراها بعقد الهمة بها وإلقاء الشراشر عليها، وإدآب النفس فيها وصرف الزمن إليها، علم الكلام المتكفل بإثبات الصانع وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الأجسام واتصافه بصفات الاجلال والإكرام، وإثبات النبوة التى هى أساس الإسلام وعليه مبنى الشرائع والأحكام، وبه يترقى في الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد الى درجة الإيقان، وذلك هو السبب للهدى والنجاح، وأنه في زمننا هذا قد اتخذ ظهريا وصار طلبه عند الاكثرين شيئاً فريا، لم يبق منه بين الناس الا قليل، ومطمح نظر من يشتغل به على الندرة قال وقيل، فوجب علينا ان نرغب طلبة زماننا في طلب التدقيق ونسلك بهم في ذلك العلم مسالك التحقيق، وإنى قد طالعت ماوقع الى من الكتب المصنفة فى هذا الفن، فلم أرفيها مافيه شفاء لعليل أو رواء لغليل .... »

ثم يسترسل الإيجى يتكلم عن مميزات كل مؤلف مما درس، ويقول إنه قد فكر طويلا فى برنامج ماكان سيقوم به، وراجع مراراً ما كتب، فأصلحه وهذبه، موضحا ماغمض وملخصا ماأطنب، حتى أتى الكتاب على الشكل الذي أراد.

وفي الجملة فان أسلوب هذا المؤلف موجز شاق ، فضخامة الكتاب ءاتية من طول الشرح والحاشيتين ، وبرنامجه متسع كثيراً ، فهو يضم مجموع الفلسفة والكلام ، وينقسم الى ستة مواقف مجزأة الى مراصد ، ويحتوي كل مرصد على مقاصد ، ويمكن ان يعتبر كل موقف كتاباً .

يستهل المؤلف بفاتحة عن العلم:

يتكلم اولا عن مطلق العلم من علم حادث وكسبى وضروري ونظري ومعرفة الاسس الاولى ، ويحلل افكارا في الحق والباطل ، وهذا هو القسم المنطقى ،

والموقف الثانى:

عبارة عن نظرة مجملة في (ماوراء الطبيعة [1]) او الامور العامة كالوجود والعدم والمادة والواجب والجائز والوحدانية والكثرة والسبب والمسبب.

والموقف الثالث : يختص بالاعراض .

واما الموقف الرابع :

«١» أي مالايختص بقسم من أقسام الموجود التى هى الواجب والجوهر والعرض «كما جاء في النص العربى» .

فهو قسم متسع جداً يذهب من علم الطبيعة الى علم النفس، وقسم علم الطبيعة مهم جداً نجد فيه المسائل التى نجدها عند ابن سينا كقابلية المادة للتجزء، (١) والفضاء، والحركة وغير ذلك، كما نجد مقالات في الأفلاك السماوية وفي الأرض، والجبال، وباختصار فى مجموع العالم المادي.

ويأتى بعد ذلك علم النفس، إثر علم الطبيعة بدون ادنى فاصلة، فيتناول هذا القسم فكرة الارواح النباتية والحيوانية والإنسانية وخواصها، والذاكرة والمخيلة وغير ذلك. ويتكلم عن الارواح المنفصلة عن الاجساد وعن العقول

وأما الموقفان اللذان يتبعان، فيتعلقان بالتوحيد:

الخامس: في الله وفي صفاته،

والسادس: فيما نزل به الوحى، فيبسط المؤلف هنا مسألة النبوة والبعث واليوم الآخر.

ويختم كتابه بذيل عن المذاهب.

☆☆☆

إن لهذا الكتاب ميزة خصوصية، فعرض الأفكار موجز والبحث مدقق، فالإيجى مؤلف ألمعى يحسن إحكام أعماله، لكن

«١» هذه نظرية أضحت اليوم مقطوعاً بها بفضل تقدم الآلات والكهرباء.

قيمته الحقة فى اتساع معلوماته ، فقد أجهد نفسه في التعمق في دراسة من سبقه من العلماء ، فهو ينقل كثيراً عنهم ويناقش أقوالهم، وينقسم هؤلاء العلماء الى ثلاثة أقسام:

أ) الحكماء ، ويكثر من ذكر ابن سينا على الخصوص .

ب) المعتزلة ، فيذكر الكثير منهم ، ويظهر أنه يعرف معرفة جيدة كل اراائهم وما بين مذاهبهم من اختلاف .

ج) المتكلمون وهم أهل مذهبه .

ما أظن أنه نقل رأساً عن القدماء كإفلاطون وأرسطو ، فقد درس فلاسفة أمته ، ولم يذكر إلا اسم أقليدس عند احتجاجه ضد إمكان انقسام الأجرام الى اللانهاية (ج ٢ ص ٢١٥)

*

* *

ولنتصفح الآن القسم الخاص بالاعراض ، يقول الإيجى :

« أما العرض عندنا (أي عند المتكلمين) فموجود قائم بتحيز ، وأما عند المعتزلة فما لو وجد لقام بالمتحيز لانه ثابت فى العدم عندهم ، ويرد عليهم الفناء فإنه عرض عندهم ولا ينعكس على أصل من أثبت عرضا لافي محل كأبي الهذيل للكلام ، وأما عند الحكماء فماهية إذا وجدت في الخارج كانت في موضوع

أي في محل مقوم (١) »

أقسام الاعراض :

« ... العرض عند المتكلمين إما أن يختص بالحى ، وهو الحياة وما يتبعها من الادراكات بالحواس وغيرها كالعلم والقدرة ، وإما أن لايختص به وهو الاكوان (المنحصرة في أنواع أربعة : الحركة والسكون والاجتماع والافتراق) ، والمحسوسات (الأصوات والروائح والطعوم والحرارة وغير ذلك) ، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الأكوان - بأنواعها الاربعة - محسوسة ، بيد ان الأغلبية لايقولون بذلك ، لاننا لانشاهد الا المتحرك والساكن والمجتمعين والمتفرقين ، ولانشاهد الحركة والسكون والافتراق والاجتماع ، وكل محسوس من هذه المحسوسات يحتوي على اعراض غير متناهية مختلفة) ، وقد ذهب الحكماء الى ان العرض منحصر في المقولات التسع ، (٢) ولم ياتوا في الحصر بما يصلح للاعتماد عليه ، وعمدتهم الاستقراء » .

ويزيد الايجي قائلا بأن الفلاسفة يرون ان العرض إما ان

«١» ج ٥ ص ٦ : الموقف الثالث في الاعراض ، المرصد الاول في ابحاثه الكلية .

«٢» انظر تعليقا على ذلك في اخر الفصل .

يقبل لذاته القسمة كالكم ، وإما ان لايقبل القسمة لذاته ومن هذا القسم الاخير الكيف وهو عرض لايقبل القسمة لذاته ، اما السبعة الأخرى فتقبله وهي : الأين والمتى والوضع والملك والاضافة والفعل (التأثير) والانفعال ، وقد كانت هذه التقسيمات موضوع بحث ومناقشة ، ومن بين الذين ذكر اسمهم اثناء المحاجة ابن سينا والامام الرازي ، ثم يقول الايجي بأن ابن سينا قد احتج على الحصر بما خلاصته :

ان العرض ينقسم الى كم و كيف ونسبة ، وان غير ذلك جوهر ، فحصر اقسام الموجود في هذه الاربعة .

لايمكننا ان ننكر قيمة هذه الصفحات من كتاب الايجي ، فهي بحق ملخص رائع يستحق ان يعد من منتخبات التاريخ العام للفلسفة .

ثم يبحث الايجي بكيفية عويصة : هل الغرض ينتقل من محل إلى محل ، واخيراً يسفر البحث عن نتيجة سلبية ، فالعامة يعتقدون ان رائحة التفاح تنتقل منه إلى مايجاوره ، وان الحرارة تنتقل من النار إلى مايماسها ، لكن من على مذهبه من المتكلمين

يقولون إن الحاصل في المحل الثاني هو عرض (١) آخر :

إننا نشم رائحة اخرى ونحس بحرارة اخرى يحدثها الفاعل المختار ، اي الله ، او تفيض من العقل الفعال لاستعداد يحصل له من المجاورة او المماسة . فكأن ذلك خلق جديد في المحل الثاني ، اما الفلاسفة فيرون ان الاعراض في المحل الثاني تصدر عن العقل الفعال بداعية ضرورة المجاورة او الملامسة .

ويخالف الايجي الفلاسفة أيضاً في مسألة جواز قيام العرض بالعرض ، وقد قالوا ان السرعة والبطء عرضان قائمان بالحركة القائمة بالجسم ، اما هو فيرى ان السرعة والبطء ليسا عرضين ثابتين للحركة ، بل هما للسكنات المتخللة بين الحركات وقلتها وكثرتها ، فحاصل البطء ان الجسم يسكن سكنات كثيرة في زمان قطعه المسافة ، وحاصل السرعة انه يسكن سكنات قليلة بالقياس إلى سكنات البطء ، ولا شك أنهما بهذين المعنيين من صفات الجسم المتحرك دون (٢) الحركة .

---

١) ان الفيلسوف الكبير هنري بركشن H. Bergson يؤيد هذه النظرية (ازداد بباريز سنة ١٨٥٩) .

٢) انظر تعليقا على هذه الفكرة في آخر الفصل .

وأخيراً ينتقل الإيجي إلى البحث في فكرة الاشعري المتعلقة بتجدد الاعراض :

إن العرض لايبقى زمانين ، فالاعراض جملتهـا غير باقية (عند الاشاعرة) بل هي على التقضى والتجدد (ينقضى واحد منهـا ويتجدد آخر مثله) وقد خصص الله كل واحد منهـا بزمن مخصوص .

ووافق على هذا الرأي النظـام ، وقال الفلاسفة وجمهور المعتزلة ببقاء الاعراض مستثنين منها الازمنة والحركات والاصوات.

أما الجبائى وابنه وأبو الهذيل فيذهبون الى بقاء الألوان والطعوم والروائح دون العلوم والإرادات والاصوات وأنواع الـكلام ، وللمعتزلة فى بقاء الحركة والسكون خلاف .

*

* *

إن الميل الى الفلسفة (اللاهوتية) ودراسة هذا العلم المعقد المستدق بقيا في الاسلام إلى أيامنا، وقدنموا نموا محسوسا عند الاتراك على الخصوص .

ونشير هنا إلى مصنف عن حرية (١) الارادة وعلم الـكلام

(١) Libre arbitre ويترجمها بعضهم بمبدإ الاختيار .

وهو (مفتاح السعادة بقلم محمد زياد الدين أفندي، طبع بالمطبعة العثمانية باسطمبول ١٣٠٩ هـ) ألف هذا الكتاب أيام عبد الحميد، وهو دراسة لاتقل علماً وبحثاً ودقة عن مصنفات التفتازانى والجرجانى والايجى.



تعليقان

= على هامش كتاب المواقف =

١) يقول الايجي إن المقولات تسع [1] ، ويرى آخرون وهم كثيرون أنها عشر ، ونظمها بعضهم في قوله :

« عد المقولات فى عشر سأنظمها
في بيت شعر علا فى رتبة تعلا
فالجوهر ، الكم ، كيف ، والمضاف ، متى ،
أين ، ووضع ، له ، إن ينفعل ، فعلا »

ونظم أمثلتها آخر فى قوله :

« زيد ، الطويل ، الأزرق ، ابن مالك ،
في بيته ، بالأمس ، كان متكى ،
بيده سيف ، لواه ، فالتوى
فهذه عشر المقولات حوى »

ويظهر أنهم يجعلون المقولات تسعاً لانهم يدخلون الانفعال

«١» انظر ص ٨٥ من هذا الكتاب

فى الفعل ، فمثلا إذا قلت :

سخنت الماء فسخن

فهناك فعل وانفعال متلازمان ، وكذلك إذا قلت :

ضرب الاستاذ التلميذ (١) .

فمعناه أنه حصل من الاستاذ ضرب (فعل) وانضراب على التلميذ (أي انفعال) بل وربما عقب الانفعال تأثيره .

لكن لى على هذا ملاحظة :

يمكن ان يحصل الفعل من الفاعل (الضرب من الاستاذ) دون ان تصادف الضربة الهدف ، فيكون على هذا فعل بلا انفعال (ولنفرق بين التأثير والانفعال ، فالاول يرجع إلى علم النفس والثانى فيزيلجى ، وهو الذي يعد من المقولات) .

فى هذه الحالة انفصل الفعل عن الانفعال (الظاهري اعنى حصول الضرب على التلميذ ، اما الانفعال الداخلى اي خوف التلميذ وتأثره فلا يبعد حصوله ، بيد انه لايهمنا لانه يرجع إلى علم النفس) .

«١» معذرة خالصة إلى إدارة العلوم والمعارف إذ ممنوع عن الاستاذ ان يضرب التلاميذ .

لأبى نصر الفارابى ، المعلم الثانى ، كلام في هذا الموضوع أقتطفه من رسالة تسمى : رسالة فى مسائل فلسفية والاجوبة عنها (مطبوعة ضمن رسائل اخرى له تحت اسم : مجموعة فلسفة ابى نصر الفارابى ، مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٢٥ هـ) .

السؤال ١٨ ص ٩٨ :

وسئل عن مقولة يفعل وينفعل ، قال السائل إذا لم يمكن ان يوجد احدهما الا مع الآخر مثلا انه لا يمكننا ان نتصور يفعل الا مع ينفعل ، وايضاً لا نتصور ينفعل الا مع يفعل ، فهل هما من باب المضاف ام لا .. فقال لا لأنه ليس كل شيء يوجد الا مع شيء آخر فهما من باب المضاف لانا لا نجد التنفس الا مع الرئة ، ولا النهار الا مع طلوع الشمس ، ولا العرض بالجملة الا مع الجوهر ، ولا الجوهر الا مع العرض ، ولا الكلام الا مع اللسان ، وليس شيء من ذلك من باب المضاف ، لكنها داخلة فى باب اللزوم ، واللزوم منه ما يكون عرضيا ومنه ما يكون ذاتيا ، فالذاتى مثل وجود النهار مع طلوع الشمس ، والعرضى مثل مجيء عمر عند ذهاب زيد ، ومنه ايضاً ماهو تام اللزوم ومنه ماهو ناقص اللزوم ، والتام هو ان يوجد الشيء بوجود شيء آخر ، وذلك الشيء الآخر يوجد ايضاً

بوجود الشيء الاول حتى يتكافئا في الوجود مثل الاب، والابن والضعف والنصف والناقص، واللزوم هو أن يوجد شيء بوجود شيء آخر، وليس اذا وجد ذلك الشيء الآخر وجد الشيء الاول، وذلك مثل الواحد والاثنين، فانه ماوجد الاثنان الا وجد الواحد وليس اذا وجد الواحد وجد الاثنان لامحالة.

ثم انظر السؤال ١٩ ص ٩٨ ـ ٩٩ :

سئل عن هذين الجنسين، أعني يفعل وينفعل، هل هما يتكافآن فى لزوم الوجود حتى إذا وجد أحدهما أيهما اتفق وجد الآخر .... فقال: لا، لانا كثيراً ما نجد يفعل ولا يكون هناك انفعال وذلك حين لا يكون القابل منها قابلا لقبول الفعل وأما متى وجد ينفعل فلا بد من أن يوجد يفعل.

فقال السائل: إذا كان معنى يفعل هو أن يؤثر، ومعنى ينفعل هو أن يتأثر، فلم لم يجعلهما الحكيم تحت مقولة، لكنهما جعلا جنسين عاليين بسيطين؟.. فقال ليس كل الاجناس العشرة بسيطة عند قياس بعضها ببعض، وإنما هي بسيطة عند قياسها إلى ما دونها، فأما البسيطة المحضة من هذه العشرة فهى أربعة: الجوهر، والكم، والكيف، والوضع. فأما يفعل، وينفعل فهما مما يحدثان

بين الجوهر والكيف، ومتى واين يحدثان بين الجوهر والكم، وله يحدث بين الجوهر والجوهر المطبق به بكله او ببعضه، والمضاف يحدث بين كل مقولتين من العشرة وبين كل نوعين من مقولة من المقولات العشر، فهو لذلك داخل من جهة او جهات في المقولات، ولا يقول كذلك لانه حينئذ يظهر انه نوع من انواع بعضها، او كلها، بل يقول ان المضاف يوجد في جميع الاجناس.



٢) اني على راي الايجي في كون السرعة(١) والبطء من صفات المتحرك دون الحركة، لكن ألاحظ ان من نفس المثال الذي ضرب لنا نستنتج ان العرض يقوم بالعرض :

يثبت ان السرعة والبطء يتعلقان بالسكنات المتخللة بين الحركات وقلتها وكثرتها.

إذن فالكثرة والقلة والبطء والسرعة أعراض بالنسبة للحركات والسكنات.

ومن جهة اخرى فهاته الحركات وهاته السكنات أعراض بالنسبة للجسم، وذلك ان الحركات إيجاب والسكنات سلب تتخللها حالة ثالثة وهي حين يكون الجسم هامداً.

«١» انظر ص ٨٧ من هذا الكتاب

على أنه يمكننا أن نعتبر السكنات اجزاء تلتف فيما بينها فيتكوّن عنها السكون (حينما تصل الى آخر حد من الكبر)، او تقل كثيراً (إلى ان تصل إلى آخر حد من الصغر) فينشأ عنها اللاسكون اي اكبر حركة يمكن ان تصدر عن الجسم.

مثال ذلك:

هذه سيارة تريد السفر من مكان يسمى (أ) إلى آخر يسمى (هـ)، ونعرف ان رقمها القياسي في السرعة هو ١٢٠ كيلو متر في الساعة.

أ ب ج هـ

بين المحطتين (أ) و (ب) كانت تخطو ١٢٠ كيلو ميتر في الساعة (هنا تقل السكنات حتى تصل إلى اكبر حد من القلة ممكن).

ثم أخذت السيارة تقطع المسافة بين (ب) و(ج) متسلقة عقبة بثلاثين كيلو ميتر في الساعة فحسب (وفي نية السائق ان يقف بالمحطة ج ربع ساعة)، فالسكنات طبعاً ستكثر حتى تكون اكبر مايكون من الكثرة، حتى إذا وصلت السيارة إلى المحطة (ج) ووقفت انعدمت السكنات.

(انظر فيما بعد فصلا: اللاّنهاية).

القسم

الثالث

حجة الاسـلام

ابو حامـد الغزالي

نظرة قصيرة

في حياته

ولد الإمام حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي بمدينة طوس (١) عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) وتعلم في صباه المبادئ الفقه، ثم رحل الى نيسابور (٢) حيث تابع دروس إمام الحرمين (٣)

---

١) طوس مدينة بخراسان تشتمل على بلدتين يقال لاحداها طابران (وهي التي دفن بها الغزالي) والاخرى نوقان . وبهما أكثر من ألف قرية . فتحت أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه . وبهما قبر هارون الرشيد

٢) نيسابور : مدينة عظيمة فتحت أيام عثمان رضي الله عنه في سنة ٣١ صلحا .

وفي نيسابور تلقى الغزالي عن إمام الحرمين الفقه والمنطق والاصول حتى برع أنداده وزملاؤه ، وتولى في أخريات أيامه التدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور مدة يسيرة رجع بعدها الى طوس .

٣) هو عبد الملك بن عبد الله الجويني ، ولد بنيسابور سنة ٤١٩ . كان إماماً مبرزاً في علم الكلام والاصول غزير الاطلاع في العلوم الاسلامية والعربية على العموم ، ويعد بحق أكبر شخصية دينية في أيامه. (انظر ج ٣ من طبقات الشافعية الكبرى مثلا) .

فبرع منذ الايام الاولى وامتاز على التلاميذ الآخرين .

ثم ودع نيسابور وقصد قصر الوزير نظام الملك (١) فتقبله بقلب رحب ، وأنزله منزلة تلائم رتبته العلمية وبراعته في المناظرة، وكان منزل هذا الوزير مجمعاً للعلماء ومحج الأئمة والمشاهير، فوجد الغزالي في جوارة فرصاً للمجادلة مع العلماء ، فطار صيته ،

---

١) نظام الملك : ازداد سنة « ٤٠٨ هـ » وتوفي عام ٤٨٥ .

هو الحسن بن علي الطوسي ، اصله من طوس ، قرأ العربية وسمع الكثير من الحديث ، ثم اتصل بالسلطان ألب أرسلان فاستوزره وبقي في هذا المنصب عشر سنين .

وبعد وفاة السلطان خلفه ابنه ملكشاه وبقي نظام الملك في الوزارة يتمتع بسلطة كبيرة حتى قتل سنة ٤٨٥ هـ بعد أن قضى مع السلاجقة في الوزارة تسعاً وعشرين سنة [من ٤٥٦ الى ٤٨٥]

ولقد بنى مدارس علمية كبيرة بنيسابور وبغداد واصبهان والبصرة والموصل ، ورفع من شأن العلماء « فهو بحق ميصين Mécène هذه الامة في عصره » . وتخرج من مدارسه كثير من العلماء والادباء .

واليه تنسب المدرسة النظامية الشهيرة التي بناها ببغداد سنة ٤٥٧ هـ وأوقف عليها مايكفي لمدرسيها ولمنح الطلبة (Les Bourses) المستعملة اليوم ، ولنفقات مساكنها وحماماتها .

وقد خصص م طالس Talas كتابا عن المدرسة النظامية وتاريخها» La Madrassa Nizamia et son histoire) .

وانتشر ذكره، ثم أرسله الوزير الى بغداد ليقوم (١) بالتدريس بالمدرسة النظامية، فاستقبل هناك استقبالا حسناً وأصبح فيها أستاذاً ومناظراً، ثم صار إماماً ببغداد بعد أن كان إماماً بخراسان (٢) ثم انقلبت الأحوال (وأصيب الغزالى بأزمة روحية يشير اليها فى كتابه المنقذ من الضلال).

غادر أبو حامد بغداد وودع التشريفات، وانكب على الزهد وتصنيف المؤلفات القيمة كإحياء علوم الدين.

ثم ذهب لبيت المقدس لينغمر في حياة النسك، وبعد أن تدرب وحصل على المقصود رجع الى مسقط رأسه حيث اشتغل

---

١) يقال ان من تلامذته أبا بكر بن العربى ومحمد ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية الشهيرة. تلقى على ابى حامد المذهب الاشعري الذي صار بعد ذلك مذهباً رسمياً بالمغرب.

أما العلامة كولد زيهر فيثبت ان ابن تومرت لم يتصل بالغزالى «انظر مقدمته الالمانية [الترجمة الفرنسية التى اعتنى بها م ديموبين] لكتاب اعجب العجب «المطبوع في الجزائر» فى عقائد ابن تومرت

٢) وقد كان بالاسكندرية فأجمع العزم على زيارة المغرب ليقدم على يوسف ابن تاشفين المرابطى الامبراطور المغربى العظيم، لكنه بلغه نعى ملكنا الهمام فعاد الى طوس وانقطع الى حياة الفكر والزهد.

وهذا يذكرنا بعرض الاستاذ الامام محمد عبده في طريقه الى المغرب، فلم يسعد وطننا بزيارة هذين الامامين العظيمين.

بالتمرن على التقوى والزهد يقود النساك ويدعو الى الله متأهبا للدار الآخرة .

توفى يوم الاثنين ١٤ جمدي الاولى من سنة ٥٠٥ (١١١١م).

*

* *

قد ارتأيت تلخيص حياته لأن الذي يهمنا هي أفكار (م كارا) فى الامام لاحياته التى توجد فى مختلف الكتب قديماً وحديثاً.



اسلوبه

للغزالى أسلوب جزل واضح سهل لين ، فلا يصعب فهم آرائه اسهولة طريقته في الكتابة ، إذ يستعين بصور مجازية ، بيد أنه لا يغفل في وقت ما الناحية العلمية ، يأخذ معه القاريء ويذهب به بعيداً ، ولكنه لا يتعبه ، وفكره فكر متزن يتخذ في كل شيء حداً ، فهو لا يكثر حتى يضجر القاريء ، ويقسم الموضوع أقساماً ، ثم يجزيء كل قسم إلى أجزاء في دقة وإتقان وفن وبدون أدنى تكلف ، ولم يكن يفرط في التدقيق لا في الفقه ولا فى علم النفس ، وحتى فى التصوف نفسه فإنه لم يتجاوز الحدود .

ويمكننا أن نقارنه ببعض الآباء اليونانيين ، وبالأخص بالقديس (جان كريزوسطون) (١) فهما يتفقان في سلاسة

---

(١) St.jean Chrysostome : (٤٠٧ - ٣٤٧ م) ازداد بأنطاكية وكان ابا بكنيسة اسطمبول

ولقد اشتهر ببراعة نادرة في البلاغة حتى لقب بالفم (الذهبى) وكان للهجته الشديدة تأثير عميق على احوال البلاط والكنيسة ، فقوم سيرها ، ثم قضى آخر ايامه بالمنفى لانه كان ينتقد سيرة الامبراطورة (اودوكسى) Eudoxie وقد ترك مواعظ رائعة .

الأسلوب الجذاب والوضوح على أننا نلاحظ ان الغزالى اكثر

من صاحبه معرفة بالقواعد العلمية واقل منه اشتغالا بالحياة السياسية »

انتهى كلام (م. كارا).

وأرى من المفيد ان آتى هنا بفقرات من كلام الغزالى حتى يتسنى لنا ان نكوّن فكرة حية عن اسلوبه نؤيد بذلك ماقاله عنه (م كارا):

يقول الغزالى عن آفات اللسان:

« .... ويدلك على فضل لزوم الصمت امر، وهو ان الكلام أربعة أقسام:

أ) قسم ضرر محض،

ب) وقسم هو نفع محض،

ج) وقسم فيه ضرر،

د) وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه، وكذلك مافيه ضرر ومنفعة لاتفى بالضرر.

وأما مالا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان، وهو عين الخسران.

فلم يبق الا القسم الرابع ، وهذا الربع فيه خطر ، إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجاً يخفى دركه ، فيكون الانسان به مخاطرا » (من إحياء علوم الدين) .

ويقول في مقدمة أحد كتبه ، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ويعرض بالمقلدين ويذم الحسدة : « رأيتك ايها الآخ المشفق ، والصديق المتعصب موغر الصدر منقسم الفكر لما قرع سمعك من طعن من الحسدة على بعض كتبنا المصنفة في أسرار معاملات الدين ، وزعمهم ان فيها مايخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن العدول عن مذهب الاشعري ولو في قيد شبر كفر ، ومباينته ولو في شيء نزر ضلال وخسر فهون ايها الآخ المشفق المتعصب على نفسك ، لا تضيق به صدرك ، واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا ، واستحقر من لايحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر أو الضلال لايعرف ، فأي داع اكمل واعقل من سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قالوا إنه مجنون من المجانين ؟ وأي كلام اجل واصدق

من كلام رب العالمين وقد قالوا انه اساطير الاولين ؟ واياك ان تشتغل بخصامهم وتطمع في افحامهم، فتطمع في غير مطمع، وتصوت في غير مسمع، اما سمعت ماقيل :

« كل العداوة قد ترجى سلامتها ❀ الا عداوة من عاداك عن حسد » ؟

ولو كان فيه مطمع لاحد من الناس، لما تلى على اجابهم رتبة ءايات اليأس، اما سمعت قوله تعالى « وان كان كبر عليك اعراضهم فإن استطعت ان تبتغي نفقاً في الارض او سلماً في السماء فتاتيهم بآية، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين ».



كتاب احياء علوم الدين

ان اشهر مؤلفات حجة الاسلام كتابه احياء علوم الدين (طبع بالقاهرة سنة ١٣١٢ بالمطبعة اليمنية في سفرين ضخمين). (١)

ان هذا المصنف العالى الذي اخذ الغرب يتعرف به جيدا لاوضح تعبير في الاسلام واتمه لعلم اللاهوت الموافق للسنة، فهو يعتمد على الوحى والنقل وعلى نفس عاطفة التقوى لا على قواعد علم الكلام، وهو خطاب موجه لجميع المومنين.

ولقد احسن المؤلف تبويب الكتاب حيث قسمه الى اربعة اقسام يحتوى كل منها على عشرة كتب او مصنفات خاصة،

---

(١) وطبع قبل ذلك طبعة حجرية بفاس في شعبان عام (١٣٠١ هـ) في ايام امير المومنين مولاي الحسن على نفقة الحكومة المغربية فى ١٣ مجلدا كبيرا [مع شرح الشيخ سيدي محمد الزبيدي المشهور بالمرتضى] وهى طبعة راقية من حيث الخط والورق والتصحيح وبهذا العمل المبرور كف المولى الحسن عما فعل المغاربة قبل ذلك بكتب الغزالى....

وطبع بعد ذلك فى عشر مجلدات ببولاق مصر سنة ١٨٩٣ فيظهر من هذا ان الطبعة الاولى هى طبعة فاس. واوقف السلطان ٣٠٠ نسخة منها على خزانة القرويين بيد انه لم يبق اليوم الا ٨٠ نسخة [؟!]

فالقسم الاول يتكلم على العبادات المهمة :

الوضوء، والغسل، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وتلاوة القرءان وتفسيره، وترتيب الاوراد في الاوقات.

وبالمقدمة مقالتان في العلم وفي اسس الايمان..

وأما الربع الثاني فموضوعه العادات من آداب الاكل، والزواج، والمعاملات التجارية، والاسفار، كما يحتوي أيضاً على بحوث في الصداقة، والاخوة، والعزلة، وحياة الانزواء، وفي الحلال والحرام، وفي سماع الموسيقى.

وأما الربعان الآخران فأطول من الاولين، ويختصان بالتصوف وبآداب التصوف، أحدهما يبحث في الناحية السلبية من هذه الآداب، والآخر في الناحية الايجابية أو في المهلكات والمنجيات.

فالناحية السلبية تدور حول تهذيب الطباع، وزواجر الشهوات الذاتية، وآفات اللسان، وآراء ضد الغضب، والحقد، والحسد، وحب، المال وذم الكبر، وحب الفخر والسمعة.

وأما بحوث القسم الرابع فتحمل عناوين هي أسماء لحالات

صوفية (١) كالتوبة، والصبر، والاعتراف، والامل، والفقر، والزهد، والورع، والحب، والشهوة، والائتلاف، والقناعة، والفناء في ذات الله، والاستسلام له.

ثم إن المواضيع الاخرى تتكلم عن الموت وتذكرها والبعث واحوال الآخرة.



«١» أرى أن هذه أخلاق إنسانية على العموم وإسلامية على الخصوص، فالآيات القرءانية والآحاديث النبوية المتعلقة بها تفوق الحصر، خلافا للمسيو كارا الذي يراها حالات صوفية، وإن الديانة المسيحية الحقة لتمتاز بنفس هذه الاخلاق.

كتاب كيمياء السعادة

يظهر أنه لا توجد أي نسخة عربية لهذا الكتاب، ويكتفي مترجمو الغزالي بذكر اسمه في لائحة مؤلفاته، فلم يعرفوا به تعريفاً كافياً، بل كل ما يقول بعضهم عنه انه مصنف الفه حجة الاسلام باللغة الفارسية (١)

وجاء في كتاب (أبو حامد الغزالي) للاستاذ محمد رضا «كيمياء السعادة والعلوم» كتاب كبير بالفارسية، يقال انه ترجم فيه (أي الغزالي) كتاب الاحياء.... وهناك كتاب آخر صغير باللغة العربية سماه كذلك، وطبع هذا الكتاب بمصر، وطبع أيضاً بمدينة (لاكنو) و (ببومباي) والقسطنطينية».

وقد عثرت على اسمه بالانجليزية، لكنها لا تحتوي على لفظة والعلوم التي رأينا عند رضا . The Alchemy of Hapiness «كيمياء السعادة» . . (؟) . . .

ولم يزد صاحب معجم المطبوعات العربية والمعربة في

«١» انظر الفصل الذي بعد هذا

تعريف الكتاب على هذه العبارة « كيمياء السعادة رسالة ضمن مجموعة رقم ٩٤ » .

فأحسن دراسة للموضوع عثرت عليها هي التي يقدم لنا المسيو (كارادوفو) هنا وها تعريبها :

لقد ترجم الغزالي نفسه كتابه « إحياء علوم الدين » باختصار إلى اللغة الفارسية تحت عنوان : « كيمياء السعادة » . والتبويب فى هذه الترجمة كما فى الاصل، منظم متقن، لكن الاسلوبين مختلفان شيئاً ما . فالانشاء في النسخة الفارسية اسهل منه فى النص العربى لكن أقل تعمقاً من الناحية العلمية ، وفيه حذف الكثير من الاحاديث .

ولقد اشتهرت بالشرق هذه الترجمة، فنقل عنها الاتراك نبذاً مختلفة ، فهاك فقرات من القسم الاول (من نسخة خطية في ملكنا) ولنلاحظ بأي بساطة يستطيع الغزالي أن يعرض علينا أفكاراً فلسفية (من مقدمة كيمياء السعادة) يريد الامام أن يفسر تلك العقيدة المعروفة كثيراً في التصوف الاسلامي ، والتي تذكر بالجملة اليونانية : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » والمقدمة سهلة سامية ، وأول الكتاب في صفات المسلمين ، وهي أربع

صفات ، أولها معرفة الانسان نفسه، وهذه المعرفة هي مفتاح معرفة الله تعالى، ولهذا قيل : من يعرف نفسه فقد عرف ربه (١) ، وجاء في القرءان: «سنريهم ءاياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق» (٢) . ففي الغالب لا شيء أقرب إليك منك ، فإذا كنت لا تعرف نفسك بنفسك فكيف يمكنك أن تعرف شيئاً ءاخر غيرك ؟ فإن قلت : إني اعرفني معرفة كافية، كنت في الضلالة ومثل هذه المعرفة ليست هي مفتاح معرفة الاله (قارن بين هذا وبين اعترافات القديس أكيستان (٣)، الفصل الخامس من الباب

---

(١) «من عرف نفسه فقد عرف ربه» قيل إنه حديث ، وللسيوطي بصل عنوانه : القول الاشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه، يوجد بالجزء الثاني ص ٤٠١ من كتابه الحاوي للفتاوي .

ويستنتج من كلام السيوطي ان هذا الحديث موضوع ،

والنووي في فتاويه يقول إنه ليس بثابت .

(٢) قد وقع للمؤلف غلط في هذه الآية الشريفة في النص الفرنسي فأوردتها هنا وفق ما في المصحف [الحزب ٤٩ صورة حم ، الآية ٥٣]

(٣) St Augustin اصله تونسي [٤٣٠ - ٣٥٤ م] كان ابا بكنيسة باجة بافريقية الرومانية ، قضى شبابه في اللهو واللعب ، ثم جذبته حياة الزهد والتشبث بالدين فانكب عليها حتى أضحى اشهر ءاباء الكنيسة اللاتينية .

وله مؤلفات منها اعترافاته ، وهي تاريخ بليغ لشبابه المملوء بالطيش والاخطاء .

الخامس).

إنك كالحيوان لا تعرف عن نفسك في الظاهر إلا الرأس والوجه والرجلين والظهر والاذنين ، وفي ما عدا هذا فإنك لا تعرف عنك شيئاً ، وتعرف في الباطن مقدار ماعرفت في الخارج: إذا جعت أكلت الخبز ، وإذا غضبت تألبت على إنسان ، وإذا انتصرت عليك الغريزة الشهوانية ارتميت على الاتصال الجسدي؛ وكل الحيوانات تفعل مثل هذا ، فيلزمك إذن أن تبحث عن كنهك حتى تصل إلى معرفة من أنت ، ومن أين أتيت ، وإلى أين تذهب ، ولماذا أتيت إلى هذا المكان ، وما الغاية من إيجادك وما سعادتك ، وما شقاوتك ، وفي أي شيء يوجدان ؛ ثم إن البعض من هذه الأجهزة المجتمعة فيك توجد فى الأنعام ، والبعض فى الحيوانات الضارية ، وأخرى عند الأبالسة ، وأخرى عند الملائكة ، فأين هي خصوصياتك من بينها ؟ أين هي التى تدخل فى مادة جوهرك وما هو الذي منها أجنبى عنها او مستعار؟ فإذا كنت لاتعرف هذا فإنك عاجز عن البحث عن هنائك .

وفى محل آخر من هذا الكتاب (الترجمة التركية للجزء الأول سنة ١٢٩٣ هـ ، الصفحة ٥٦) يحاول الغزالى أن يشرح

كيف أن فهم الأشياء يختلف باختلاف الحالات النفسية، وكيف كان الفرق كبيراً بين معرفة الإنسان ومعرفة الله ؛ ويضرب الأمثال، قال : إن مثل هؤلاء الاشقياء من المنجمين والاطباء الذين لايعرفون الإله وإنما يعتمدون على النجوم والاشياء الطبيعية، كمثل النملة التى رأت القلم يمشى فوق الورق فظنت أن الكتابة منشؤها القلم، ففى هذه الدرجة المنحطة يوجد العالم الطبيعى الذي يعزو كل شيء الى الحرارة والبرودة، وإلى الماء والارض، أما النملة الاخرى التى تفحص الاشياء بإمعان، فتتحقق بأن حركة القلم لاتاتى من نفس القلم، وتفرض أن القلم يمشى بإرادة الاصبع وتقول للاولى : «إنك تظنين أن الحروف تصدر عن القلم، والحقيقة ليست كذلك، إنها تاتى من الأصبع، لأن القلم تحت سلطة الاصبع (١) ».

فهذه هي درجة المنجمين الذين ينسبون سير الاشياء إلى سير النجوم، فهم لايعرفون أنهم فى الضلال، اذ الملائكة هم المشرفون على سير النجوم، ثم ان الملائكة أنفسهم لايتحركون الا باذن الله.

«١» يوجد مثال النملتين بكتاب الاربعين، وهو من مؤلفات الغزالى.

إن الطبيعى الذي ينسب إدارة الكائنات إلى الطبيعة يقول حقا من بعض الوجوه، فلولا علم الطبيعيات لما كان علم الطب ولما سمح (القانون) الشرع للاطباء بأن يعالجوا الامراض، لكنه من ناحية أخرى ضال، فهو يمشى كحمار أعرج لا يعرف ان الطبيعة تحت تصرف الإله، فيتحتم عليه ان يقف بالباب كأخس العبيد، فى المكان الذي تخلع فيه النعال.

وأما المنجم فهو من جهة يرى ان الشمس كوكب يعطى للعالم الحرارة والضياء، فلولا الشمس لما كان ليل ولما كان نهار، ولما نمت الحبوب والنباتات، ولولا القمر لما بقى معنى لتحديد أوقات الصلاة والصيام والزكاة والحج، لأنه لا يمكننا التفرقة بين الأسابيع والشهور والاعوام.

والقمر هو الذي يكسب الزهور والثمار مالها من عطر وألوان خلابة، فالشمس حارة وجافة، والقمر بارد وندى، وأما زحل فبارد جاف، والزهرة جافة ندية، ففى كل هذا يمكن المنجمين أن يكونوا على حق، لكنهم يخطئون حينما يدخلون كل شىء تحت هذه الظاهرات الكونية المسلمة، دون ان يتفطنوا إلى أنها في قصاري الامر تدخل تحت تصرف الإله، كما تؤيد

ذلك الآية : « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره (١) » .

ثم يورد الغزالى مثلا معروفا يوجد بقصيدة جلال الدين الرومى الشهيرة :

دخل فيل بلدة عميان فاجتمع السكان حوله ، هذا مس رجله ، وذاك الخرطوم ، وثالث الاذنين ، فسألهم أحد : ما الفيل ؟ فأجاب الأول : إنه يشبه سارية ، وادعى آخر : إنه نوع من الألوية ، وهكذا صار كل يمثله على حسب العضو الذي لمس ، والحقيقة أن كل واحد من العمى قد صدق فيما مثل به بالنسبة لعضو من الاعضاء ، ولكنه يخطىء إذا أثبت أن كل الفيل كما زعم ، وهكذا لكل من المنجم والطبيب والدهرى الحق ان يقول : إن هذا يؤثر في قيادة الاشياء ، لكنه يكذب إذا ادعى ان مجموع الاشياء يخضع لذلك .

ثم ياتى الغزالى بمثال آخر ، فيشبه العالم بقصر (ونلاحظ هنا

«١» زعم م كارا ان هذه الآية حديث [الآية ٥٤ سورة الاعراف الحزب ١٦] فهناك حديث شريف له علاقة بهذا المعنى وربما كان ذلك سبب الالتباس الذي حصل للمسيو كارا :

قال صلعم « إن الشمس والقمر ءايتان من ءايات الله لايخسفان لموت احد ولا لحياته . » البخاري ومسلم وغيرهما .

ان هذه الطريقة واضحة جداً يفهمها العامة) : بنى ملك قصرا ، وبالقرب من البيت الخاص به كان ءاخر خاصا بالوزير ، ويحيط بهذا البيت صحن وبناء يحتوي على اثنى عشر بيتا في بروج ، وفي كل بيت نائب للوزير ينقل اوامره للخارج ، وبباب كل برج يقيم سبعة من رؤساء الخيالة ، واربعة من قواد الجنود الرجالة بأيديهم مقاود ، ومهمتهم ان ينفذوا احكام (البادیشاه) (١) ويصفدون كل من تامر جلالته بتكبيله ، فهذا السلطان هو الإله طبعاً ، واما الوزير الذي في البيت المجاور فيقوم بدور العقل الفعال او الملائكة المقربين الذين جعل الله بين ايديهم تسيير العالم ، وأما المساحة التى تحيط بمكان الوزير فهي السماء حيث توجد أبراج الأفلاك الاثنى عشر ، ورؤساء الخيالة السبعة هي الكواكب السيارة السبعة التى تقوم صباح مساء بباب البروج ، وأما ضباط المشاة الأربع فيمثلون المواد الاربع : الماء والتراب والنار والهواء ، والمقاود التى بأيديهم هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .... والخلاصة ان العلل الثانوية التى يسند اليها الطبيعيون والأطباء والمنجمون أقوالهم كلها حقيقة ، بيد

«١» كلمة تركية وهي لقب سلطان الترك

أن العلة الأولى الخالدة هي وجوب الوصول في النهاية إلى الله ...»

*

* *

إلى أي حد يتفق كتاب كيمياء السعادة و كتاب إحياء علوم الدين ؟ هذا سؤال لانستطيع أن نجيب عنه مادام كتاب كيمياء السعادة غير موجود لدينا ، ثم ان الصفحتين أو الثلاث التى أتى بها هنا (م كارا) لاتكفى للمقارنة .



على هامش
كتاب كيمياء السعادة

بعد أن نشر الفصل المتقدم فى مجلة «الثقافة المغربية»، عثرت على مصنف مطبوع باسم كيمياء السعادة، فارتأيت أن آتى بالفصل كما نشر من قبل دون تغيير، وأن أتبعه هنا بهذا الفصل تتميما للفائدة (١).

بين يدينا الآن مصنف صغير طبعته مطبعة السعادة بمصر باعتناء السيد محيى الدين صبري الكردي، يشتمل على كيمياء السعادة وعلى الرسالة اللدنية، والرسالتان معا لأبى حامد الغزالى.

يقول الناشر في آخره:

« .... إن حصولى لهذا (٢) الكتاب لم يكن أمراً سهلا، فقد بذلت الجهود في نسخه من إحدى كتبخانات الاستانة. »

والمصنف من الحجم الصغير (٥٠ صفحة: ٢٠ فى كيمياء السعادة، والباقى في الرسالة اللدنية).

---

١) ويرجع الفضل الى الاخ الاديب سيدي محمد بن عبد الرحمن السعداني فهو الذى أرشدني الى وجود هذه النسخة وحصل لي عليها. فله شكري

٢) انقل مافى النسخة دون تغيير

ولنتصفح هذه النسخة .

يستهل حجة الإسلام بمقدمة عادية في إيضاح معنى كيمياء ، منه ، (ص ٣) :

« اعلم ان الكيمياء الظاهرية لاتكون في خزائن العوام وإنما تكون في خزائن الملوك، فكذلك كيمياء السعادة لاتكون إلا في خزائن الله سبحانه وتعالى، ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الارض قلوب الاولياء العارفين ، فكل من طلب هذه من غير حضرة النبوة قد أخطأ الطريق، ويكون عمله كالدينار البهرج فيظن في نفسه أنه غني وهو مفلس في القيامة كما قال سبحانه وتعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

بعد ذلك ياتي فصل عنوانه : (معرفة النفس) يتفق كثيرا وما وجدنا عند م كارا ، أنقله لنتابع المقارنة ونصل إلى نتيجة نقتنع بها ، (ص ٤) :

« اعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وليس شيء اقرب إليك من نفسك، فإذا

لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك ؟ فإن قلت إني اعرف نفسي، فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة ، ولا تعرفه في باطنك من الامر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة ، وإذا اشتهيت طلبت النكاح ، وإذا جعت طلبت الاكل ، وإذا عطشت طلبت الشرب ، والدواب تشاركك في هذه الامور ، فالواجب عليك ان تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدرى اي شئ انت ، ومن اين جئت الى هذا المكان ، ولاي شيء خلقت ، وبأي شيء سعادتك وبأي شيء شقاؤك ، وقد جمعت في باطنك صفات منها صفات الملائكة ، فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك وعارية عندك ، فالواجب أن تعرف هذا وتعرف ان لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة ، فإن سعادة البهائم في الاكل والشرب والنوم والنكاح ، فإن كنت منهم فاجتهد في اعمال الجوف والفرج ، وسعادة السباع في الضرب والفتك ، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل ، فإن كنت منهم فاشتغل باشتغالهم ، وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربوبية ، وليس للغضب والشهوة إليهم طريق . فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة اصلك حتى تعرف

الطريق الى الحضرة الإلهية وتبلغ الى مشاهدة الجلال والجمال، وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب، وتعلم ان هذه الصفات لاى شئ ركبت فيك، فما خلقها الله تعالى لتكون اسيرها ولكن خلقها حتى تكون اسراك وتسخرها للسفر الذى قدامك، وتجعل احداها مركبك والاخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك، وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية، وقرار العوام درجات الجنة، فتحتاج الى معرفة هذه المعانى حتى تعرف من نفسك شيئاً قليلا، فكل من لم يعرف هذه المعانى فنصيبه من القشور، لان الحق يكون عنه محجوبا».

ثم ياتى فصل بلاعنوان مضمنه أن المرء مركب من جسم وروح. ويفسر فى الفصول الثلاثة التى تلى، معنى النفس أو القلب الذي يعرفه (بعين الباطن.)، وباختصار فإن الفصول الخمسة (التى تلى فصل تفسير كيمياء) كلها فى معنى الروح وحقيقتها، وفى النزعات النفسية وتقسيم النفس، وان الإنسان مركب من قالب وروح، منها واحد فى معرفة القلب وعسكره، وهو فصل صغير وظريف انقله هنا:

«اعلم انه قيل فى المثل ان النفس كالمدينة، واليدين

والقدمين وجميع الأعضاء ضياعها، والقوة الشهوانية واليها، والقوة الغضبية شحنتها، والقلب ملكها، والعقل وزيرها، والملك يديرها حتى تستقر مملكته واحواله، لأن الوالى وهو الشهوة كذاب فضولى مخلط، وهو الغضب شرير قتال خراب، فان تركهم الملك على ماهم عليه هلكت المدينة وخربت، يجب ان يشاور الملك الوزير ويجعل الوالى والشحنة تحت يد الوزير، فإذا فعل ذلك استقرت احوال المملكة وتعمرت المدينة، وكذلك القلب يشاور العقل ويجعل الشهوة والغضب تحت حكمه حتى تستقر احوال النفس ويتصل الى سبب السعادة من معرفة الحضرة الإلهية، ولو جعل القلب تحت يد الغضب والشهوة هلكت نفسه وكان قلبه شقيا فى الاخرة.» (ص ٩).

ثم بعد هذا نجد ثلاثة فصول حول الاخلاق، وأربعة فى عجائب القلب، وآخر في الفطرة الانسانية.

فلنقف قليلا في فصل: ان الشهوة والغضب خادمان للنفس، جاذبان يحفظان أمر الطعام والشراب لحمل الحواس.

ومما يرد في هذا الفصل:

« وقوة الخيال في مقدم الدماغ كالنقيب يجمع عنده

أخبار الجواسيس » .

وقوة الحفظ في مقدم الدماغ مثل صاحب الخريطة يجمع الرقاع من يد النقيب ويحفظها الى أن يعرضها على العقل » .

أين مقر المخيلة (قوة الخيال أو ملكة الخيال) ؟

وأين مقر الحافظة (قوة الحفظ أو ملكة الحفظ) ؟

هذان سؤالان من أسئلة يهتم بها العلماء منذ (Alcméon ألكميون) اليونانى الذي كان طبيباً وفيلسوفاً في القرن الخامس قبل الميلاد، و(أبيقراط Hippocrate هيبوكراط) أشهر أطباء التاريخ القديم (ازداد باليونان سنة ٤٦٠ قبل الميلاد) ، فمنذ عصر هذين الرجلين الى يومنا حيث العلم الحديث مايزال يعتنى بهذه الدراسة أيما اعتناء (انظر العدد الاول سنة ١٩٣٦ من مجلة أكبر الحوادث الطبية Les grands èvènements médicaux) فهو عدد خاص بتاريخ دراسات المراكز التى في الدماغ .

كانت الفلسفة القديمة تجعل مقر العقل والملكات المختلفة في القلب (وكان على هذا الرأي كثير من مفكري الاسلام) .

ويرى أرسطو أن في القلب مركز الذاكرة وإدراك المحسوسات ؛ وجعل آخرون الروح فى الدم ؛ وادعى ديكارت

Descartes أن الروح متصلة بجميع الجسد ، بيد انها توجه تأثيرها بالخصوص على الغدة الصنوبرية (١) .

وزعم (فلورانس Flourens العالم الفرنسى ١٨٦٧ - ١٧٩٤) أن الدماغ قطعة لاتتجزأ : إذا تأملت تأملت بمجموع الدماغ ، وتحس وتتخيل كذلك بالدماغ كله .

اما (ڭول Gall الألمانى ١٨٠٨) فلا يقول بنظرية (وحدة الدماغ) بل يرى علاقة ونسبة بين العمليات الفكرية وثقل مابداخل الدماغ (المخ والمخيخ ..) ، ويقول بوجود مراكز مختلفة ، وأن هياة الجمجمة هى الصورة الظاهرة للدماغ ، بحيث يمكننا أن نحكم على طبع وعريكة المرء واستعداداته بمجرد فحص الصورة الخارجية للجمجمة (١) .

على أنه لايعمل اليوم بنظرية فلورانس ولابنظرية ڭول . هذه بعض المراحل التى مرت بها مسألة دراسة الملكات الفكرية ، وبعض المحطات المهمة التى وقف بها الباحثون في

---

(١) لوزة في وسط الرأس La glande pinéale .

(٢) هذا مايسمى بـ : Phrénologie أو Cranioscopie أختار للاصطلاح عليه لفظة الرأسلوجية (فالدماغلوجية أقرب ولكنها أثقل) .

تحو الهم بالدماغ .

وقد وصلت أبحاث أصحاب علم النفس، بالتعاون مع الاختصاصيين في هذه الناحية من الاطباء، الى نتائج لما تتم، مستعينين بآلات خصوصية فى معامل خاصة (١) .

ومن الذين درسوا مسألة الحافظة في عصرنا وبحثوا عن مقرها (مودسلي Maudsley) و(واند Wundt) و(ريبو Ribot) القائلين بأن صيانة الأشياء المرئية أو المسموعة الخ ... وحفظها يكون فى نفس مراكز الإحساس بها، أو في نفس مراكز إدراكها، ويرى (بان Bain) مايقارب نظريتهم .

أما الدكتور (سوليى Sollier) فى كتابه (مشكلة الذاكرة Problèmede la mémoire) فيجعل الحافظة فى المراكز التى في مقدم الدماغ .

فلنقارن بين هذين النظريتين وبين ماصرح به أبو حامد منذ ماينا هز تسعة قرون ! ..

---

١) واول معمل لهذه التجارب النفسية اسسه (واند Wundt) سنة ١٨٧٩ بـ (ليبزيك Leipzig)، ويعد هـذا التأسيس خطوة خالدة في تاريخ علم النفس .

وفيما يخص مقر المخيلة فإن (فلسيج Flechsig) يراها في نواحى الجبين ومقدم الدماغ (وعبارة الغزالى باللفظ هي: «وقوة الخيال فى مقدمة الدماغ»).

وأما الأستاذ (بلابير Paulin Malaper) فى كتابه (دروس الفلسفة ص ٢٥٢ من ج ١) فلا يجزم إلا بشيء واحد هو أن مصدر الخيال من الدماغ.

ونجد كذلك عند المعلم الثانى محمد بن محمد الفارابى في كتابه فصوص الحكم (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٥) محاولة من هذا القبيل، ص ١٥٢:

«(فص) إن وراء المشاعر الظاهرة شركا وحبائل الاصطياد مايقنصه الحس من الصور، ومن ذلك قوة تسمى مصورة وقد رتبت فى مقدم الدماغ، وهي التى تستثبت صور المحسوسات بعد زوالها عن مسامتة الحواس أو ملاقاتها، فتزول عن الحس ويبقى فيها قوة تسمى وهما، وهي التى تدرك من المحسوس مالايحس، مثل القوة التى فى الشاة اذا تشبح صورة الذئب فى حاسة الشاة تشبحت عداوته ورداءته، فيها، اذ كانت الحاسة لاتدرك ذلك، وقوة تسمى حافظة وهي خزانة مايدركه الوهم، كما أن

القوة المصورة خزانة مايدركه الحس ، وقوة تسمى مفكرة وهي التى تتسلط على الودائع فى خزانتى المصورة والحافظة فيخلط بعضها ببعض ويفصل بعضها عن بعض ، وإنما تسمى مفكرة اذا استعملها روح الإنسان والعقل ، فإن استعملها الوهم سميت متخيلة »

وجاء فى كتاب العمران البشري لعبد الرحمان بن خلدون فصل كذلك فى (قوى النفس ومراكزها من الدماغ) (١) .

فها نحن نرى أن البعض من مفكري الإسلام قد اهتموا منذ قرون بما تشتغل به اليوم البحوث والتجارب العلميـة بأوربا والعالم الجديد ، والله وحده يعلم متى سنصل الى نتائج تامة في هذا الميدان الغامض ، يقول هيجو : « تتضارب زوابع تحت كل دماغ . » ويقول شكسبير Shakespeare في رواية « هامليط Hamelet » : « انه ليكبر على فلسفتنا ان تدرك ما في الدماغ » .

إن اكبر السياحات (او الدراسات) فى بعض مناطق الدماغ البشري التي وصلت إلى نتائج يطمئن لها العلم، وقعت في القرن التاسع عشر (١) لكنها ـ الى اليوم ـ لم تزد على تقرير ان المركز

---

١) وعند الايجي فى كتاب المواقف (انظر الاشارة الى ذلك بهذا الكتاب ص ٨٣) .

٢) كما وصل الباحثون الى معرفة كثير من الامراض الفكرية

الحقيق للعقل، والملكات المختلفة في الدماغ وفي الجهاز العصبي. من ذلك الحين اتجهت انظار بعض العلماء الى اكتشاف ما في هذا (المقر)، فوصل (هانس برجي الالماني Hans Berger) الى أن بالدماغ تموجات كهربائية [هذا آخر اكتشاف بالدماغ، سنة ١٩٢٩]، وظهر في السنوات الاخيرة كتاب فرنسي في هذا الموضوع عنوانه: «التموجات الدماغية وعلم النفس. (Les ondes célébrales et la psychologie) بقلم جان دولي Jean Delay» وهو كتاب قيم.

وكل ما بقي الآن مقطوعاً به علمياً:

١ - (في سنة ١٨٦١) وجود مركز الكلام (مركز بروكا Broca) بالمنطقة اليسارية من الدماغ.

٢ - (من سنة ١٨٧٠ الى ١٨٧٧): وجود مراكز محركة في الوسط.

٣ - (من سنة ١٨٧٠ إلى ١٨٧٧): وجود مركز للادراك البصري في اسفل مؤخر الدماغ، ومراكز أخري لبعض الادراكات الحسية.

*

* *

جل التجارب تقع على ادمغة المرضى بعد موتهم وعلى ادمغة المعاتيه.

ولنرجع الآن الى الفصول الباقية :

أولها في «أن تمام السعادة على ثلاثة أشياء : قوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العلم » .

ثانيها فصل في أن للقلب مع عسكره أحوالا وصفات بعضها يسمى أخلاق السوء ، وبعضها أخلاق الحسن .

الثالث في أن جلد ابن آدم أربعة أشياء : الكلب ، والخنزير ، والشيطان ، والملك .

بعده يأتي فصل في أن الإنسان في صورة آدم ، وغدا تنكشف له المعاني ، فتكون الصورة في معنى المعاني .

ونجد في هذا الفصل النظرية الآتية (ص ١٣) :

« .... ان الصور تابعة للمعاني ، وإنما يبصر النائم في نومه ماصح في باطنه .. » ، هذه الفكرة من أسس مذهب (فرود Freud) وسطكل SteKel) ومدرستهما في الدراسات النفسية التي تعتمد على الاحلام . وما يسميه ابو حامد (الباطن) هو نفس ما يعبر عنه في اصطلاحات علم النفس بالعقل الباطن .

ونجد أيضاً في (المقدمة عند ابن خلدون) محاولات علمية في تحليل الرؤيا .

ثم ياتي بعدهذا الفصل،فصل آخر تكميلي ، وإثرهما ثلاثة فصول في عجائب القلب نقتطف من ثانيها (ص ١٥) :

« ان القلب مثل المرآة ، والروح المحفوظ مثل المرآة ايضاً لأن فيه صورة كل موجود ؛ واذا قابلت المرآة المرآة الأخرى حلت صور مافي احداهما في الأخرى ، وكذلك تظهر صور مافي اللوح المحفوظ الى القلب (١) إذاكان فارغامن شهوات الدنيا... » .

نصل الى فصلين في التصوف والحض عليه ، يعقبهما ءاخر في أن اللذة والسعادة لابن ءادم في معرفة الله تعالى .

ومن المفيد أن ننقل هنا من الفصل الذي يلي هذه الفقرة :

« إن نفس ابن ءادم مختصرة من العالم وفيها من كل صورة في العالم أثر منه ، لأن هذه العظام كالجبال ، ولحمه كالتراب ، وشعره كالنبات ، ورأسه مثل السماء ، وحواسه مثل الكواكب ؛ وتفصيل ذلك طويل ؛ وأيضا ، فإن في باطنه صناع العالم ، لأن القوة التى في المعدة كالطباخ ، والتى في الكبد كالخباز ، والتى في الامعاء كالقصار ، والذي يبيض اللبن ويحمر الدم كالصباغ ؛ وشرح ذلك طويل » (ص ١٩) .

---

١) لايبعد أن تصبح هاته الفكرة أساسا لحل مشكلات عويصة الى اليوم ك(La télépathie)وك(La transmission des pensées)

ان المثالين الذين أتيت بهما ، من تشبيه اللوح المحفوظ بالمرءاة .. . وجسم الإنسان بالعالم ، ليعطياننا صورة عن ما كان لابى حامد من قوة الملاحظة في أشياء المحسوس و الباطن ، وقوة النفس فى متابعة التشبيه إلى النهاية .

ثم ينتقل بنا إلى الفصول الثلاثة الاخيرة التى يحض فيها على الزهد في الدنيا كلها : « وكل شرف لم يظهر في الدنيا فهو في الآخرة فرح بلا غم ، وبقاء بلا فناء .... » .

☆☆☆

ماذ نستنتج من هذه الدراسة ؟

نستنتج من هذا كله ان كتاب كيمياء السعادة الذي يتحدث إلينا عنه (م كارا) ليس هو الموجود « بإحدى كتبخانة الاستانة » والذي درسناه فى هذا الفصل ، وذلك ، (١)

أولا : لم نعثر فى المصنف الاخير على مثال الفيل ومدينة العميان ، ولا على تمثيل العالم بقصر (وكل هذا يوجد بنسخة م كارا)

ثانيا : إن م كارا يقول عند سوقه لمثال المنجمين و الاطباء ما يأتى « ... وفي الترجمة التركية للجزء الاول ص ٥٦ ... » فعلى هذا يكون (كيمياء) م كارا في أجزاء [أو على الاقل في جزءين]

---

١) انظر الفصل المتقدم .

أما [كيمياء] مطبعة السعادة ففي جزء واحد [وهو اكبر تقدير]؛

كما يوخذ من هذا أن [الكيمياء الاول] كتاب يبلغ عدد صفحاته الستين على أقل تقدير [وهو أجزاء] وان الكيمياء الثاني مصنف صغير لايتعدى عشرين صحيفة.

ملاحظات :

١) فلا يبعد إذن أن تكون هناك كيمياء السعادة (الكبرى) وكيمياء السعادة (الصغرى) ألف كل منهما على حدة وبالعربية.

٢) أو أن الثانية مختصرة من الأولى، وان المختصر هو الغزالي نفسه ، أو المترجم التركي أو الفرسي.

٣) كما لايبعد أن يكون ابو حامد قد الف كتابا بالعربية وآخر بالفارسية (أحدهما أكبر من الثاني) واطلق عليهما اسماً واحداً ، وإنما الالتباس اتى من التراجمة التركيين.

٤) وان ناسخاً زاد(غلطاً) في نسخة من النسخ لفظة (والعلوم)، فكتب هكذا (كيمياء السعادة والعلوم) (كما عند الاستاذ (١) محمد رضا) فنقلها بعض الرواة على ذلك الشكل ، ويؤيد هذا ماروي عن الغزالي نفسه ، قال :

---

١) انظر الفصل الماضي .

«... وأما ما توهمه أهل الإباحة، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في كيمياء السعادة». (كتاب المنقذ من الضلال).

*

* *

الرسالة اللدنية :

ثم نسترسل في سياحتنا بداخل المصنف الذي طبعته مطبعة السعادة، فنصل الى الرسالة اللدنية.

هى إجابة لطلب صديق يريد من الغزالي ان يذكر طرفا من مراتب العلوم، وان يتبسط بالخصوص الى العلم الغيبى اللدنى الذي يعتمد عليه خواص المتصوفة، وأن يصححه ويعزيه لنفسه ويقر على إثباته.

بعد الفصل الاول فى تعريف العلم والحض عليه، يأتى فصل ممتع فى شرح النفس والروح الانسانى، أرى من المفيد أن أنقل منه هذه المختارات : بعد أن عرف الروح الحيوانى والروح الطبيعى، قال عن النفس (ص ٢٧) :

«وحيثما نقول الروح المطلق او القلب فإنما نعنى به هذا الجوهر، والمتصوفة يسمون الروح الحيوانى نفساً، والشرع ورد بذلك، فقال : أعدى عدوك نفسك، وأطلق الشارع اسم

النفس بل أكدها بالإضافة ، فقال : نفسك التى بين جنبيك ، وإنما أشار بهذه اللفظة الى القوة الشهوانية والغضبية ، فإنهما ينبعثان عن القلب الواقف بين الجنبين » .

ثم يلاحظ على المتكلمين تعريفهم النفس بالجسم اللطيف ، وعلى من يقول إنها عرض ، وعلى من يرى الدم روحا (١) .

إثر هذا شرع يتكلم عن الجسم، والعرض، والجوهر الفرد (٢) (ص ٢٨) .

« فالروح الحيوانى جسم لطيف كأنه سراج مشتعل موضوع فى زجاجة القلب، أعنى ذلك الشكل الصنوبري المعلق فى الصدر . والحياة ضوء السراج والدم دهنه ، والحس والحركة نوره، والشهوة حرارته ، والغضب دخانه ، والقوة الطالبة للغذاء الكائنة فى الكبد خادمه وحارسه ووكيله، وهذا الروح يوجد عند جميع الحيوانات . والإنسان هو جسم وآثاره أعراض. وهذا الروح لا يهتدي الى العلم، ولا يعرف طريق المصنوع، ولا حق الصانع، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن . لو يزيد

---

١) انظر هذه الفكرة بهذا الفصل .

٢) وهو فصل ممتع من واجب القراء عليّ أن آتى به ، ومن واجبى عليهم أن يقرؤوه .

الدم ينطفى ذلك السراج بزيادة الحرارة ، ولو ينقص ينطفى بزيادة البرودة . وانطفاؤه سبب موت البدن ، وليس خطاب الباري سبحانه، ولا تكليف الشارع لهذا الروح، لأن البهائم وسائر الحيوانات غير مكلفين ولا مخاطبين بأحكام الشرع . والانسان إنما يكلف ويخاطب لأجل معنى آخر وجد عنده زائداً خاصاً به . وذلك المعنى هو النفس الناطقة والروح المطمئنة ، وهذا الروح ليس بجسم ولا عرض، لأنه من أمر الله تعالى، كما قال: « قل الروح من أمر ربى » وقال « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية » . وأمر البارى تعالى ليس بجسم ولا عرض ، بل قوة إلهية مثل العقل الاول واللوح والقلم، وهي الجواهر المفردة المفارقة للمواد ، بل هي أضواء مجردة معقولة غير محسوسة . والروح والقلب بلساننا من تلك الجواهر ، ولا يقبل الفساد ولا يضمحل ولا يفنى ولا يموت ، بل يفارق البدن وينتظر العود إليه في يوم القيامة » .

ويقول عن الروح الناطق إنه ليس بجسم ولا عرض . بل هو جوهر ثابت دائم غير فاسد

ويزيد قائلا : إن العرض لا يفنى بعد فناء الجوهر، لانه

لايقوم بذاته . وإن الجسم يقبل التحليل كما قبل التركيب من المادة والصورة .

ومن هنا ينتقل الغزالي يقرر التصوف .

نصل الى فصل فى طريقة تحصيل العلوم (التعلم الإنسانى والتعلم الربانى) ، وهنا يتحدث عن الوحى والإلهام .

ننتقل الى فصل فى مراتب النفس والنسيان والفطرة .

وأخيراً يختم بفصل عن حقيقة العلم اللدنى وأسباب حصوله .

*

* *

كانت - وأنا أحرر هذا الفصل - تتنازعنى فكرتان : المحافظة على وحدة الموضوع ، ومن جهة أخرى إطلاع القاريء على مافي هذين الرسالتين من مسائل مفيدة ، ففضلت الفكرة الثانية على الأولى بعد أن الزمت نفسى بالإشارة اكثر ما يمكن لأن الاستفاضة في التحليل ، مدعاة الى تطويل ، وليس لى فى هذا الكتاب الى ذلك من سبيل ، فمعذرة .



راي الغزالى فى علم الكلام

للغزالى تأليف وجيز سماه (إلجام العوام عن علم الكلام)، يعرض فيه بوضوح، وبفكرة التحليلي المعهود كيف يفهم نفسية العوام الدينية ، ويوجب فيه على العامة ان يحجموا عن كثرة البحث والخوض فى مسائل هذا العلم، فذلك ضروري لهم : كما انه يجب على من لا يحسن السباحة ان يمسك نفسه عن الاستجراء على أعماق البحر وصونها عن مزالق الشطوط، يجب كذلك صون العامة عن هذا العلم ، فيجب عليهم ان يكتفوا في الغالب بالحجج المأخوذة من القرءان وان لا يبحثوا او يفكروا الا قليلا جداً (١) .

---

١) والكتاب مطبوع يقع في ٤٢ صحيفة من الحجم الصغير، وقد اتبع فيه المؤلف، كعادته، حسن التبويب . وهو يحتوى على ثلاثة أقسام :

أ) بسط مذهب السلف في العقائد .

ب) ترجيحه بالادلة، وإظهار أن مخالفيهم مبتدعون .

ت) آراء مختلفة لها علاقة بهذا الموضوع .

وذكر صاحب (كشف الظنون) كتابا ءاخر للغزالى اسمه (مقصد الخلاف في علم الكلام) .

ويقول إنه قد جمع في كتابه (جواهر القرءان) (٢) مايناهز ٥٠٠ ءاية تختص بمعرفة الخالق، فبهذا يجب ان يعرف العامة عظمة الله وعزته، لابحجج المتكلمين.

فمقدمات المتكلمين وتقسيماتهم وحججهم المعقدة، إنما تحدث اضطراباً فى القلوب الهادئة عوضاً من أن تقنعها، فالبراهين المأخوذة رأسا من القرآن تقنع عقولهم، وتسكن أرواحهم، وتربى فيهم إيماناً راسخاً، ومثل ذلك مايقع في المعتقدات الاخرى: وحدانيته تعالى، وصدق النبى، والإيمان باليوم الآخر.

ويرى الغزالى أن الإيمان ست درجات:

فى الأولى: يرجع الاعتقاد الى الدلائل المشروحة تماما قضية بقضية وكلمة بكلمة والمستوفى شروطها، فهذه هي الحجة العلمية (الهندسية)، لكن العقول التى تصل الى هذا الحد قليلة جداً، (وهذه هي المرتبة القصوى)

وفي الدرجة الثانية: الإيمان عن طريق البراهين الوهمية الكلامية، المشهورة بين جهابذة العلماء المسلمة المصدق بها، وهذه أيضا طبقة لايصعد اليها كل الناس.

٢) انظر الكلام عنه بعد هذا الفصل

واما الدرجة التى تلي: فتنحصر في الثقة بالادلة الخطابية المعروفة والكثيرة الاستعمال.

وأما إيمان الطبقة الرابعة: فيرجع إلى الخضوع لبعض التعاليم، كما إذا أصغينا الى رجل نثق به كالاب مثلا أو الاستاذ. والاقتناع عن هذه الطريقة متين، وهكذا يتلقى الصبى عن طريق ابويه او اساتذته دون ان يطالب بأدلة.

واما القسم الخامس: فيتألف من إذعان العوام بسهولة عند سماع الشيء مع قرائن احوال لاتفيد القطع عند المحقق، كما اذا علم قوم بمرض امير، ثم سمعوا صياحا وعويلا يتصعدان من داره، فيستنتجون موته او بلوغه السياق، وهنا يلاحظ الغزالى انه يمكن ان يكون هناك غواية، لكنه لا يتصور هذا الضلال فى حق النبى الذي رآه وسمعه الكثير من العرب، ورأوا خصاله الحميدة، وأفعاله الطيبة قيد حياته.

وأخيرا نصل إلى إيمان الدرجة السادسة: الذي ينحصر في كون العامى يصدق بسهولة مايميل إليه، وما يطابق طبيعته، وهذه هي أضعف درجات الإيمان. (١)

«١» وفي كتاب احياء علوم الدين فصل عنوانه (الآفات العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى)، كتاب آفات اللسان،

وبناء على هذا، فان أعلى درجات الإيمان - بالنسبة للعامة - هي التى تتكون من الحجج المأثورة عن القرءان، أو مايجري مجرى ذلك، كمواعظ الخطباء التى تحرك الأفئدة الى التصديق، فمع العامة يجب أن يوقف عند هذا الحد، فكل ماتجاوزه تعدى طاقتهم، فالكثير من الناس يومنون في صباهم لمجرد التقليد لآبائهم أو لأساتذتهم، ولحسن ظنهم بهم، وحكاية هؤلاء بين أيديهم لبعض الخرافات، كالعقوبات التى حصلت لمن ليسوا على عقيدتهم: (١) إن اليهودي الفلانى قد وجد في قبره غولا هائلة، وان رافضيا قد تحول خنزيرا، فكل هذا يرسخ في ذهن الصبى رسوخ النقش على الحجر، وبقدر ماينمو سنه بقدر مايزداد تعلقه بالعقيدة وثوقا، حتى إذا بلغ أشده أصبحت إيمانا لايشوبه ريب (ولهذا نرى صبيان المسيحيين والرافضيين والمجوس والمسلمين يشبون جميعا محتفظين على عقيدة ءابائهم، سواء كان هذا الإيمان مبنيا على حق أو على باطل، فلو قطعتهم إربا إربا ماتخلوا عن

«١» يقول العالم الاجتماعى جبرائيل طارد (Gabriel Tarde «إن التقليد شيء اجتماعى أساسى مطرود في العالم».

ذلك الايمان ، (١) فهم لايقبلون الدلائل العقليـة ولا الدلائل النقلية)، وكذلك نرى ان الأسارى من المشركين الذين لايعرفون شيئا عن الاسلام، يعتنقونه بعد أن يقضوا وقتا تحت سلطة المسلمين وذلك حب في التقليد ، والخلاصة هي ان التصديق الجازم لايعتمد على البحث واختبار البراهين وتلاؤمها.

☆☆☆

ان كل هذا الفصل الذي اضطررنا الى تلخيصه مهم ومهم جداً لايخلو من استسلام للقدر مع ارتياب، أو على الأقل يخلط بين العقيدة والعادة ، فينشأ عن هذا أنه ليس لدهماء الناس - فيما يتصل بالدين - الا ان يتبعوا مقدورهم ، فمحيطهم وازديادهم هما اللذان يجعلان منهم مومنين أو كافرين . (٢)

«١» هذه الفكرة إسلامية :

« كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه او ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء» حديث شريف أخرجه البخاري وغيره .

على أن هذا الحديث يعني بالفطرة الاسلام، ويجعل ماعداه من المعتقدات عوارض تحدث من جراء تأثير الوسط الذي يعيش فيه الصبي.

وقد عقد الجاحظ فصلا في مسألة التقليد بكتاب الحيوان ، كما أشار الى هذا الحديث الغزالى في (المنقذ من الضلال) عند كلامه على الفطرة ، وللرئيس ابن سينا أيضاً كلام على الفطرة .

«٢» من الذين دافعوا عن علم الكلام وقاموا برد الفعل ضد هجومات الغزالى، عضدالدين الايجي (انظر فصل كتاب المواقف)

مؤلفات الغزالى ذات الصبغة الفلسفية

القحة

« أهم هذه المؤلفات هى :

١) المنقذ من الضلال .

وهو تصنيف صغير ترجم مرتين للفرنسية بقلم شمولدرس Schmœlders وبقلم Barbier de Meyard) باربيي دومينار) طبع ببمباي وبالقاهرة .

٢) المضنون به على غير أهله (الكبير والصغير) .

٣) مقاصد الفلاسفة ، وهو الكتاب الذي ذكره ابن رشد . »

*

* *

لم يزد (م كارا) فى التعريف بهذه الكتب على هذه الإشارة ؛ وبما أنها مصنفات ذات قيمة كبيرة ، لا أرى بداً من الوقوف هنا والتعليق عليها تعليقاً مناسباً .

على هامش هاته الكتب الفلسفية

(١)

المنقذ من الضلال،

طبع بالقاهرة مرتين، أولا سنة ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢ـ١٨٩١) وثانيا سنة ١٣١٦ هـ، وطبع كذلك ببيروت ودمشق عام ١٩٣٤ وباسطمبول (١٨٧٦ م).

أما بأوروبا فكانت أول طبعة عام ١٧٤٢، وتوجد ترجمته بالفرنسية بالمجلة الاسياوية (١٨٧٧)، كما درسه دراسة علمية شمولديرز (Auguste Schmœlders) سنة ١٨٤٢ ونشره مصحوبا بترجمة فرنسية.

يقع فى ٤٨ وجها من الحجم الصغير، ألفه الغزالى بعد ان جاوز الخمسين من عمره.

*

* *

يحمل فيه حجة الاسلام على التقليد، ويدعو إلى الوصول

للحقائق مباشرة .

كما يصف فيه حالاته النفسية المختلفة ، وما حصل له من صعوبات كبيرة حين غشيته امواج المبادىء الفلسفية المختلفة المتضاربة ، وكيف دفعه السيل إلى هوة الاضطراب والشك في كل شيء (١) .

إن الغزالي يريد ان يقتنع عن طريق اليقين ، فمطلوبه العلم بحقائق الامور ، فالعلم اليقيني الذي ينشد هو الذي ينكشف معه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكانية الغلط والوهم ، او كما يقول (ديكارت فى كتابه حديث المنهج) .

«لا أقبل ابدا صحة اي شيء الا اذا اتضح لى بديهيا انه صحيح» (القانون الاول من قوانين المنهج الاربعة) ، ويقول (مالبرانش Malebranche) : « إنه من المضحك ان نتفلسف ضد التجربة » .

فالأمان من الخطإ ، فى نظر الغزالي ، ينبغي ان يكون مقارنا لليقين مقارنة بحيث لو : « تحدى بإظهار بطلانه مثلا من يقلب

---

١) قارن بين هذا وبين الشك عند ديكارت Descartes الذي سيأتى الكلام عليه . على أن نلاحظ أن الغزالي يجعل من شكه بحثا سلبيا ، لا مبدأ أساسيا كما يفعل ديكارت الذي يعتمد على الشك كأساس منه يصعد الى اليقين ، فيصل ببحثه الى نتيجة إيجابية) .

الحجر ذهبا والعصى ثعبانا، وقلبها وشاهدت ذلك منه لم اشك بسببه في معرفتى، ولم يحصل لى منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمت فلا، ثم علمت أن كل مالا اعلمه على هذا الوجه، ولا اتيقنه على هذا النوع من اليقين، فهو علم لاثقة به ولا امان معه، وكل علم لا امان معه فليس بعلم يقينى».

ثم انتقل به شكه الى التفتيش عن العلوم التى يمكنه تطبيقها على هذه القواعد التى فرضها على نفسه، فيئس من وجود علم موصوف بتلك الصفات، وكانت النتيجة ألاّ مطمع فى اقتباس المشكلات الا من الجليات وهي الحسيات والضروريات، وهذه النتيجة هي أساس مذهب (الأمبيريسم L'Empirisme) المؤسس فى أوروبا بالعصر الحديث، ومن زعمائه (لوك Locke الانجليزي ١٧٠٤ ـ ١٦٣٢)؛ وهي أيضا أساس المدرسة الإحساسية (Sensualiste) التى يترأسها (كونديلاك الفرنسى Condillac ١٧٨٠ ـ ١٧١٥).

ثم يتسع نطاق الشك: «فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان في المحسوسات أيضا..».

وهنا يأتى الغزالى بأدلة هي غاية الدقة في الاحتجاج على ضعف الحواس، ممثلا بأغلاط اقواها، وهي حاسة البصر حتى وصل الى التصريح بانه : « قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا، فلعله لا ثقة الا بالعقليات .... ».

أخذ يرتاب فى صحة النتائج التى يصل إليها بالحس لما بينها وبين نتائج الحكم العقلى من تباين فى غالب الاحيان، « يجب على الفكر ان يحكم على الاشياء معتمداً على قوته الداخلية فحسب، دون أن يصغى لشهادة الحواس والمخيلة الخاطئة المبهمة . » (مالبرانش، كتاب البحث عن الحقيقة)؛ ويؤيد هذه النظرية كذلك افلاطون، والقديس أجيستان، وديكارت، وبرجسن وهانرى كارى وغيرهم ..

على أن أبا حامد لم يكن ليطمأن إلى أحكام العقل، مادامت احكام العقل نفسها، من جهة تتناقض، ومن اخرى تخضع لتأثير الحالة النفسية التى نحن عليها ساعة الحكم، وعليه، إذا تغيرت الحالة النفسية تغير الحكم، وبما ان الحالات النفسية تتجدد، فما هو يا ترى الحكم الصائب، هل الاول « حين صدر مثلا عن نفس تتأجج غضبا » ؟ ام الثانى (وقد قال به المرء بعد ان خفت وطأة الغضب

وهدأ روعه) ؟...

اخذ يتسرب للغزالى الارتياب فى صحة احكام العقل نفسه، فصاح بأعلى صوته: «.. فلعل وراء إدراك حاكم العقل حاكم آخر إذا تجلى يكذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه، وعدم تجلى ذلك لايدل على استحالته».. (١)

يقف بنا الغزالى عند هذا الحد، وقد جردنا من الثقة في حواسنا وعقلنا وحذرنا من تقليد الغير، يقف بنا وسط طريق لانعرف له مسلكا، في ليلة ليلاء وقد جن ظلامها، فلما رأى منا الحيرة، ونحن نتساءل: قد وصلنا الى سلب شامل، فما العمل، انبقى تحت هذا الظلام الحالك لانتقدم ولا نتأخر؟ قال: انتظروا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من القلب، فبعد ريبى واضطرابى وجدت طمانينتى في التأمل، وضالتى عند الصوفية وفى المغامرة في خمرتهم، «فارتضيت التصوف وازدريت طرق التفلسف»، وهذا الحل الاخير مال إليه قلبى بإلهام إلهي، اتبعوا وحي قلوبكم، وفندوا كل ماتصلون إليه

---

١) نجد كانط الفيلسوف الالمانى (سياتى الكلام عليه) ينتصر لهذه النظرية في (كتاب انتقاد العقل المجرد).

بحاساتكم، ولا تقبلوا ابدا شهادات عقولكم، إني لكم من الناصحين (١)

*

* *

يقول الاستاذ لطفى جمعه في كتابه (تاريخ فلاسفة الاسلام) ص ٧٤ : «إن بعض كتاب الأفرنج يصفون كتاب الغزالى المسمي (المضنون به على غير اهله) باعترافات الغزالى تشبيها له باعترافات جان جاك روسو ».(٢)

إن الاستاذ قد غلط فى هذا . فكتاب (المنقذ من الضلال) هو الذي يطلق عليه الغربيون (اعترافات الغزالى)، وهو الذي يستحق هذا الوصف، لانه رسالة يتكلم فيها حجة الإسلام بسذاجة ولهجة تدل على الصدق والإخلاص عن تطوراته الفكرية، وعن اشتغاله بالعلم اولا، ثم عما طرأ على نفسه من ازمات روحية، الشيء الذي جعل هذا الكتاب مرآة تنطبع فيها صورة ابى حامد وما جريات حياته احسن انطباع، فعول عليه من درسوا حياته كالسبكى من القدماء، فى [طبقات الشافعية الكبرى]، ومن المحدثين الدكتور زكى مبارك في اطروحته

---

١) سنعود إلى هذه النقطة بتفصيل في فصل «مذهب الشك» وعند ردنا على الدكتور زكي مبارك

٢) انظر حياته فى ءاخر الفصل .

(الاخلاق عند الغزالي).

وهافقرات من مقدمة (المنقذ من الضلال) تلقى نورا على الموضوع، قال الغزالي مخاطبا سائلا :

«اما بعد، فقد سألتنى ايهـا الاخ فى الدين ان أبث اليك غاية العلوم واسرارها، وغاية المذاهب واغوارها، واحكى لك ماقاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد الى بقاع الاستبصار، وما استفدته اولا من علم الـكلام، وما احتويته ثانيامن طرق اهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام، وما ازدريته ثالثا من طرق التفلسف، وما ارتضيته اخيراًمن التصوف، ومانحل في تضاعيف تفتيشى عن اقاوين الخلق من لباب الحق، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة، وما دعاني إلى معاودتي بنيسابور بعد طول المدة.».

ويجب هنا ان نتساءل : بمـا ان الغزالي لايعتمد على العقل والمنطق فى الاحـكام، كيف ساغ لـه ان يختار «اخيرا التصوف» من بين مختلف المذاهب التى درس حججها، والطوائف التى تفحص مبادئها ؟ ان هذا اختيار عمدته شيء آخر غير العقل وغير

الحس ، ان مصدره وازع داخلي ، ذلك هو (الافتطار) او ما يعبر عنه (في المنقذ من الضلال) بالذوق ، وعلى هذا يكون الغزالي قد سبق (برجسن المولود ١٨٥٩ بباريز Bergson) الى معرفة اساس المذهب (الافتطاري (L'Intuition) ، بيد انه اهتدى له ولم يحلله تحليلا علميا ، ولم يعطه حقه من العناية والفحص كما فعل برجسن الذي جعل من الافتطار مدرسة جديدة في الفلسفة ، يقول الامام الغزالي في مقدمة المنقذ : « ... وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ... » .

نرى انه يحوم حول الافتطار ولكنه ، ويا للاسف ، يردون ان يقف . ان العلماء المعاصرين يتفقون على نظريته في كون الافتطار في الجبلة « غريزة وفطرة » ، وانه « لا يخضع للاختيار والحيلة » ، فالتفكير المنطقي اذن ليس هو مجموع الفكر ، وان الوصول الى المعرفة لا يكون دائما وابدا عن طريق الحواس ، وعن طريقها فقط ، بل ان بداخلنا عالما لا يرتكز على قوانين المنطق ولا

على نتائج الحواس ، عالمَ فكر غير واضح .

هكذا فطننا الغزالي الى وجود هذا العالم الداخلي، وعوّدنا ان نتعرف بالحياة النفسية من جهة عمقها عوضا من ان نقف بالمساحة كما كان يفعل القدماء ، وجاء برجسن ومدرسته فاكتشفوا من جديد هذا العالم النفسي العميق الغامض ، وقادونا معهم في سياحات بداخله ، ولم يكتفوا بالوقوف بتخومه كما فعل ابو حامد .

*

* *

ويزعم الاستاذ لطفي جمعه ايضا ان ابا حامد يستهل كتاب (المضنون به على غير اهله) بالفقرات التى اوردتها في ص ١٤٩ وهذا غلط ءاخر، اذ هي من مقدمة المنقذ من الضلال ، اذ لو صح ذلك لكان زعمه الاول، من ان (المضنون) هو (اعترافات الغزالي) ، صحيحا ايضا ، لان تلك الفقرات تلخص حياة ابى حامد الفكرية ، وتشعرنا من اول وهلة من ان الكتاب الذي أخذت منه (اعترافات) حقاً وليس على الاستاذ لطفي ولا على القارىء الا أن يرجع المصنفين (وهما مطبوعان) ليقف على عين الصواب .

انظروا الآن معي الى هاته الجمـل التي أنقلها من (المنقـذ)، ثم بعـد ذلك الى ملخص (المضنون) لتقارنوا، يقول الغزالي فـي المنقذ(ص٩):

«.. والغرض الآن حكاية حالي لا ....»

وفي ص ٢٨ : «... ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ...» ، فهذان اعترافان صريحان (١) .

والمستمع اليه يتحدث عن نفسه في المنقذ من الضلال (ص ٣، المطبعة الجمالية سنة ١٣٢٩) :

«ولم ازل منذ راهقت البلوغ قبل العشرين الى الآن، وقد اناف السن على الخمسين ... انوغل في كل مظلمة، واتهجم على كل مشكلة .. واتفحص عقيدة كل فرقة، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا اغادر باطنياً الا واحب ان اطلع على بطانته، ولا ظاهرياً الا واعلم حاصل ظهارته. ولا فلسفياً الا واقصد الوقوف على كنه فلسفته،

«١» ألاحظ ان م كارا لم يهتم بكتيب المنقذ بقدر ما فعل بالكتب الاخرى ، مع ان هذا المصنف الصغير يشرح حياة مترجمنا الفكرية وانقلاباته في الميادين المختلفة أكثر من سواه .

ولا متكلماً الا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفياً الا واحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبداً الا وارتصد ما يرجع اليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطلا الا وتجسس وراءه للتنبيه لاسباب جرأته في تعطيله وزندقته، وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري ... »

هذه الفقرات تزيدنا تبصرة بقيمة (المنقذ) وايماناً بأنه اولى من سواه بلقب (اعترافات)، كما تزيدنا تقديراً للغزالي ولفكره الجبار الذي استطاع ان يتفحص مختلف المذاهب، وان يهضم الكثير من افكارها المتضاربة المتشعبة، حتى كوّن فكرة عامة في جل اصناف المعارف الذهنية الموجودة في عصره، ورائده في ذلك الوصول الى الحقيقة عن طريق البحث والاجتهاد، لا يرضي لنفسه الجمود ولا يقتصر على التقليد.

*

* *

يمكننا أخيراً أن نخرج من دراسة (المنقذ) بالنتيجة العامة الآتية :

إن هذا الكتاب يعطينا صورة حية عن ماحصل للغزالي

من شك وما مر به من حالات متغيرة ، وأنه شبر غور كل عويصة الى ان وجد مايشفى غليله فى التصوف فارتضاه مذهبا، وتتلخص المراحل التى مر بها فيما يلى :

أولا : الفطرة (الاعتقادات الموروثة) فى الصبا .

ثانيا : التكوين الفكري الأول والاستعدادات (من الصبا الى البلوغ) .

ثالثا : دور البحث (من سن العشرين) .

رابعا : (بعد ان عمر خمسين سنة) : اعتنـاق التصوف والاطمئنان إليه عن طريق الافتطار (١) .

*

* *

(٢)

المضنون به على غير أهله :

ولناق الآن نظرة على المضنون ، فهناك مضنونان :

المضنون به على غير أهله (الاكبر) :

يشك الشيخ مرتضى في صحة نسبته للغزالى ، كما شك فى

«١» وقد قيل إنه تاب في ءاخر أمره من التصوف ، ومات مقتنعا بمذهب السلف .

ذلك غير واحد من الباحثين ، كابن السبكى في طبقاته ، فإنه يروى أن ابن الصلاح ذكر ان هذا الكتاب منسوب إلى أبى حامد ، وقال معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه مختلقا موضوعا عليه .

طبع بالقاهرة أولا سنة ١٣٠٩ هـ ، وثانيا سنة ١٣١٦ هـ .

محتوياته :

أ) معرفة الربوبية .

ب) معرفة الملائكة .

ج) حقائق المعجزات .

د) معرفة مابعد الموت والانتقال من الدنيا الى العقبى .

وفيه آراء تخالف المشهور عند الأشاعرة (كقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات) وسيحبط هذه الأفكار فى كتابه تهافت الفلاسفة .

*

* *

المضنون به على غير اهله (الاصغر) :

فيه أجوبة عن المسائل الأخروية .

مطبوع (١٢ ص من الحجم الصغير) بالمطبعة الجمالية (١) بمصر سنة ١٣٢٩ هـ تحت هذا الاسم : [المضنون الصغير ، وهو الموسوم بالأجوبة الغزالية في المسائل الأخروية]، أما [م ليون جوتيي فى تعاليقه الفرنسية على رسالة حى بن يقظان لابى بكر بن الطفيل، فيسميه بكتاب « النفخ والتسوية » أو المضنون الصغير . » ' ويقول صاحب كشف الظنون :

« ورأيت في مسامرة الشيخ الاكبر أنه قال : إن الشيخ أبا الحسن على المسفر كان جليلا حكيما عارفا مخمول الذكر ، ورأيت بسبتة له تصانيف منها [منهاج العابدين] الذى يعزي لأبى حامد الغزالي وليس له ، وإنما هو من مصنفات هذا الشيخ ، وكذلك أيضا كتاب (النفخ والتسوية) الذي يعزى لابى حامد أيضا ، وتسميه الناس (المضنون الصغير) .

نجد فى اول ص من الكتاب ، بعد البسملة هاته الفقرات التى هي تلخيص لما فيه : « سئل الشيخ الامام ... الغزالي عن معنى قوله تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى) ، ما التسوية وما النفخ وما الروح » ؟ فبعد أن شرح التسوية والنفخ

«١» طبع سنة ١٣٠٩ هـ وعام ١٩١٣ هـ بالقاهرة طبعة رديئة .

قال عن الروح : « ليس بجسم يحل البدن حلول الماء فى الإناء ، ولا هو عرض يحل القلب والدماغ حلول السواد في الاسود والعلم في العالم ، بل هو جوهر وليس بعرض لانه يعرف نفسه وخالقه ويدرك المعقولات ، وهذه علوم ، والعلوم أعراض ، ولو كان موضوع العلم قائما به لكان قيام العرض بالعرض ، وهذا خلاف المعقول . .

*

* *

يتضح مما تقدم ان كتاب (المنقذ من الضلال) هو الذي يشبه اعترافات جان جاك روسو - من بعض النواحى فحسب ، إذ بينهما بون شاسع فى كثير من الجهات - ، وأن كتابي (المضنون به على غير اهله) - الاكبر والاصغر - لا يمكن ان يطلق عليهما اعترافات الغزالى .

والاستاذ لطفى جمعه يشير الى (المضنون) دون تمييز بين الاكبر والاصغر حتى إننا لاندري أيهما يقصد ، ومهما يكن من شيء ، فعلى فرض ان (المضنون به على غير اهله الاكبر) للغزالى فإنه لايصلح ان يكون (اعترافات أبي حامد) بله المضنون الاصغر.

*

* *

(٣)

كتاب مقاصد الفلاسفة :

مطبوع بالعربية [سنة ١٣٣١ هـ] وترجم منه الى اللاتينية القسم الخاص بالمنطق ، وفي ١٥٠٦ م طبعه [دى كولونى] فى البندقية (Venise) تحت اسم [منطق العرب وحكمتهم للغزالى]. وتوجد الآن نسخة لاتينية بخزانة السربون بباريز ، كما طبع بأوروبا في أواخر القرن التاسع عشر [١٨٨٨] ترجمة بير Beer Georg .

محتوياته :

أ) المنطق .

ب) الحكمة الإلهية .

ج) الحكمة الطبيعية .

وهو كتاب يتهيأ فيه الغزالى للوثوب على الفلاسفة والاغارة على مبادئهم، يشرح فيه (مقاصدهم) ويعرف بنظرياتهم ليدحضها فى كتاب التهافت، فكأن الكتابين جزآن من مؤلف واحد، الاول « مقاصد الفلاسفة » لبسط افكارهم وشرحها، والثانى - أي التهافت - لنقدها وهدمها، وهذا ما يشير إليه

المؤلف نفسه في مقدمة المقاصد :

« ... فسأكتفي بشرح مبادئهم ، مضيفاً إليها الادلة التي يثبتون بها أقوالهم ، فغاية هذا الكتاب هي شرح مقاصد الفلاسفة ، ولهذا اخترت له هذا الاسم . » ؛ ويقول كذلك :

« حتى إذا فرغنا منه استأنفنا له جداً وتشميراً في كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة » .

☆★☆

(٤)

إن مؤلفات الغزالى كثيرة جداً ، وقد قال بعضهم إنها اكثر من ١٣٠ مصنفاً ، لكن قد شك المؤرخون في صحة نسبة الكثير منها إلى أبي حامد .

ومن أهم كتبه التي لم يطعن في صحتها له ـ على ما أعرف ـ :

أيها الولد !

كتاب في الاخلاق [ومن الغريب أن الدكتور زكي مبارك لا يعتمد عليه في دراسة الاخلاق عند الغزالى ، فلمَ يا دكتور ؟] مطبوع ومترجم للالمانية وللانجليزية ، ويحتوي على نصائح تظهر الغزالي بمظهر الرجل العملي الذي كل همه في العمل ، منها :

« لو قرأ رجل مائة الف مسألة علمية علمها وتعلمها ولم يعمل

بها لا تفيده إلا بالعمل .

العلم شجرة والعمل ثمرتها ، ولو قرأت العلم مائة سنة، وجمعت الف كتاب، لا تكون مستعداً لرحمة الله إلا بالعمل .

العلم بلا عمل جنون ، والعمل بلا علم لا يكون عملا .

اجعل الهمة فى الروح ، والهزيمة فى النفس ، والموت في البدن » .

☆☆☆

الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة :

مطبوع ومترجم إلى الفرنسية بقلم Lucien gautier ليسيان جانتى) .

وهو من طراز المظنون به على غير أهله (الاصغر) .

☆☆☆

جواهر القرءان :

طبع طبعتين بمصر، إحداهما سنة ١٣٢٩ بمطبعة كردستان، والثانية بالمطبعة الرحمانية، وتوجد نسخة خطية فى المتحف البريطانى وأخرى فى مكتبة برلين ، ويقع فى ٦٦ ص من الحجم الصغير .

قسمه الى علوم واعمال ، وأكثره سرد لآيات قرءانية .

*

* *

قيل إن آخر تآليف الغزالى هو (منهاج العابدين) وهو صغير الحجم ، جمع فيه مافي ربع المهلكات من كتاب إحياء علوم الدين (انظر التعليق الاول ، ص ٣ ـ ٤ من شرح الكافى على عقيدة أهل السنة ، مطبعة النيل بمصر .) وراجع كذلك كشف الظنون .

رتبه الغزالى على سبع عقبات : الاولى عقبة العلم ، الثانية التوبة ، الثالثة العوائق ، الرابعة العوارض ، الخامسة البواعث ، السادسة القوادح ، السابعة الحمد والشكر .

وقد ترجمه الى التركية إلياس عبد الله المعروف بنهانى بعد أن أضاف إليه مسائل العبادات الخمس .

*

* *

(٥)

جان جاك روسو .

روسو (١٧١٩ ـ ١٧٧٨) J. J. Rousseau كاتب مبرز في الآداب الفرنسية ، يعدهو وفولطير فرسي رهان القرن الثامن عشر

ازداد بجنيف من أب ساعاتى .

انتقلت أسرته، قرنا قبل ازدياده، من فرنسا الى سويسرة فراراً بعبادئها الدينية، (لانها كانت من اتباع المصلح الدينى كالفان).

لقنه أبوه منذ صباه حب العلم، حيث كان يقضى معه الساعات الطوال في المطالعة، خصوصا كتب التاريخ.

انتقل في بعض الوظائف الصغيرة، وأخيرا فى ١٧٥٠ أظهر للجمهور محاولة في فن الموسيقى (نوطة بالاعداد).

ثم اتفق أن أعلنت في فرنسا مسابقة ادبية حول الموضوعين الآتيين :

١) هل تقدم الفن والعلم أعان على فساد الأخلاق، أم على صلاحها ؟

٢) ماهو أسس عدم التساوى بين أفراد الإنسان ؟

شارك روسو فى هاتين المسابقتين، فراجت كتابته بين جميع الاوساط لعذوبة أسلوبه ولأفكاره الغريبة، فقد تحامل على المدينة وعلى الحياة في الوسط (فكل الشر الذي يلحق المرأ، او يصدر عنه يأتيه من الوسط الذي يعيش فيه)، هذه الفكرة هي أساس مذهبه .

بعد هذا نشر قصة فى الحب La Nouvelle Héloïse ،

وحديثا اجتماعيا : العقد الاجتماعى Le contrat Social و(إميل)

في التربية (Emile) .

على أنه في هذا الوقت ـ وقد أتته الشهرة ـ اضطر لأن

يبتعد ، ثماني سنوات ، في سويسرة وبريطانيا العظمى من أجل

ما أحدثته من ضجة أفكاره المخالفة لما كان عليه الناس ،

فكانت سنوات بؤس وشؤم عليه .

وبعد ذلك كتب اعترافاته الشهيرة ، وكتابا آخر [أحاديث

سائح منعزل] Propos d'un promeneur solitaire .

للدكتور محمد حسين هيكل كتاب عربي في جزأين ، عن

حياة هذا الرجل وآثاره .



كتاب تهافت الفلاسفة

وله كتاب شهير «تهافت الفلاسفة» طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣ (١) مع تهافت التهافت لابن رشد وكتاب خوجه زاده.

اشتهر هذا الكتاب بأوروبا منذ القرون الوسطى بفضل ترجمة عبرانيـة، فقد عرفه [ليل ريمـون Lulle Raymond] وعنى به في العصر الحاضر العلماء ومؤرخو الفلسفة أيما اعتناء.

لقد اعتمـد [سمولديرز Schmolders] على الصيغة اللفظية للتهافت فقال (دون ان يعرف الكتاب) : إنها تدل على التفاعل، ففسرها بـ « التفنيد المتبادل بين الفلاسفة » ظناً منه أن غرض الغزالي أن يقابل أقيسة المذاهب المتناقضة، وأن يظهر انها تتداحظ.

---

١ أي ١٨٨٤ م، وذلك بالمطبعة الاعلامية، وطبع ببومباي سنة ١٨٨٦، ومرات أخرى بمصر (١٩٠١، ١٩٠٢، ١٩٠٣، ١٩٠٤).
وتوجد ترجمته بالعبرية و ١٧ نسخة خطية موزعة على أكبر الخزائن.

أما (مونك Munk) فقد أوضح أن هذا مجرد ادعاء، وفهم أن الغزالي أخذ على نفسه في هذا الكتاب أن يحطم مبادىء الفلسفة بنقد عام. ولم يحاول «مونك» ان يشرح معنى فيلسوف في «تهافت الفلاسفة» ، وزاد هذا العالم قائلا :

« ان كل قيمة الغزالي بالنسبة إلينا منحصرة في ارتيابه، وهذا مايجعل له مكانة في تاريخ فلاسفة العرب . »

ويقول (رونا Renan) : « حينما أصبح الغزالي صوفيا تصدى لإثبات عجز الفكر الكلي ، وجعل عمدة الدين هي الشك، هاته العملية الحاسمة التى سحرت أفكار اولئك الذين كثرت جرأتهم بقدر ما قلت حكمتهم » .

إن كل هذه الآراء ليست على صواب ، فالحقيقة هي ان كتاب تهافت الفلاسفة انتقاد موجه ضد مدرسة الفلاسفة [بحصر المعنى] ، فيمكننا ان نترجمه :

بـ « بلادة أو لغو الفلاسفة » .

محتويات الكتاب :

في هذا الكتاب مقدمة (١) وعشرون مسألة ، الغاية منها

---

١) بل بالكتاب أربع مقدمات ، كما يعلم بالوقوف على ذلك في طبعات

دحض الاراء الفلسفية الفاسدة، وإظهار ان لافائدة في الآراء الاخرى الصائبة.

فالمسألتان الاوليان تبطلان أزلية العالم وابديته، والرابعة في تعجيز الفلاسفة عن الإتيان بأدلة يثبتون بها وجود صانع العالم.

ومن جملة الآراء التي فندها قولهم (أي الفلاسفة): ان الاول لايعلم الجزئيات، (٢) بخلاف نفوس السماوات، فهي تطلع على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم، (٣) وان السماء حيوان متحرك بإرادته. (٤) والنفوس الإنسانية (٥) سرمدية يستحيل

مختلفة، فانظر مثلا آخر طبعة (المطبعة الكاثوليكية ببيروت) وهي أجمل طبعة متقنة، اعتنى بتصحيحها والتعليق عليها الآب (Maurice Bouyges موريس بويج) سنة ١٩٢٧ م وجعل لها فهارس مختلفة.

٢) هذه هي المسألة الثالثة عشر، يحاول فيها أبو حامد أن يحبط قولهم بأن الله تعالى لايعلم الجزئيات المنقسمة بانقسام الزمن الى الكائن وما كان وما يكون.

٣) هذه المسألة السادسة عشر، يدحض فيها قولهم ان نفوس السماوات مطلعة على جميع الجزئيات الحادثة في هذا العالم، وأن المراد باللوح المحفوظ نفوس السماوات، وان انتقاش جزئيات العالم فيها يضاهي انتقاش المحفوظات في القوة الحافظة المودعة في دماغ الانسان.

٤) هذه هي المسألة الرابعة عشر.

٥) هذه هي المسألة التاسعة عشر.

عليهـا العدم ، وكذلك إنكارهم للبعث [1] ورد الارواح إلى أجسادها .

ومن الآراء المسلمة التى يرى الغزالي أنهم عاجزون عن إثباتها بأدلة :

أن الله هو خالق العالم، وان روح الانسان جوهر قائم بنفسه.

إن الفلاسفة، في نظره ، مجبورون على الوصول (تحت قيادة أقيستهم نفسها) إلى الإلحاد وإلى مذهب المادة والهيولى .

أما من حيث مزاولة التعقل ، وإقامة براهين من فلسفة المدرسة التقليدية الجدلية ، فإن هذا الكتاب فى الدرجة الاولى من المتانة ، فالغزالي ماهر في هذا الفن الذي أراد ان يظهر بطلانه ، ولكن الشيء الذي يهمنا هو ان نعرف ، هل يريد الغزالي ان ينقد بعض آراء المدرسة الجدلية التقليدية التى يرى أن فيها غلطا ، أم يريد ان يظهر أن العقل نفسه عاجز ومخطر . فيظهر

«١» هذه هى المسألة العشرون ، وقد عنونها الغزالي هكذا : مسألة في إبطال إنكارهم لبعث الاجساد ، ورد الارواح الى الابدان ، ووجود النار الجسمانية ، ووجود الجنة والحور العين وسائر ماوعد به الناس ، وقولهم ان كل ذلك أمثلة ضربت لعوام الخلق لتفهيم ثواب وعقاب روحانيين هما أعلى رتبة من الجسمانية .

من إسهاب الغزالي في الانتقادات ، وتوجيهها ضد النقط الاساسية في المذهب التقليدى المدسى الجدلى ، أنه يقصد الفكرة الاخيرة.

ويجب ان نفحص أيضا المسائل المتعلقة بقدم العالم وأبديته واتساعه ، وكذلك سياق الاسباب بلا انتهاء ، والعدد اللا نهاءى (١) (وقد ظن ان كل الايضاحات لاتجدي نفعا ، وانه يمكن ان يخرج بنتيجة تؤيد الطرفين المتناقضين ، ومن هنا يكون قد سبق الفيلسوف (كانط) (٢) في هذه النظرية.

«١» انظر فصل : اللانهاية .

«٢» كانط Emmanuel Kant [١٧٢٤ - ١٨٠٤] فيلسوف ألمانى ، له ثلاثة مصنفات :

ا] انتقاد العقل المجرد .

ب] نقد العقل العلمى .

ت] انتقاد الحكم .

وهو فلكى رياضى ، تعلم فلسفة ليبنيز الالمانى Leibniz ، والفرنسى روسو J. J. Rousseau .

وفلسفة تدور حول النقط الاتية :

ا] ماذا يمكننا أن نعرف ؟

ب] ماذا يجب أن نعمل ؟

ت] ماذا نستطيع ان نأمل ؟

وتتلخص فى هذه الجملة : فلسفة تعتمد على الشك في حقائق الاشياء وعلى اليقين في الاخلاق ، والنية أساس نظريته [فى الاخلاق] على ان من درس هاته النظرية يجد أنها تتلخص فى الحديثين الشريفين : « النية أحسن من العمل » و « إنما الاعمال بالنيات » .

إنه لا يقول هذا تماما ، لكن ضرب من الاقناع ، بسياق الادلة وإعادتها على نمط آخر ، والاحتجاج بها في الوجوه المتباينة ، محصيا للفرق ، مظهرا للمضادة بين الحالات المختلفة ، هو الذي يجعلنا نرجح انه مندفع نحو إثبات القضية وتأييدها ، بقدر ماهو مدفوع نحو تقابلها ونفيها ، حتى إننا نشعر بالتناقض القوي .

فلنا الحق إذن ان نعتبر هذا الكتاب كباكورة نيرة ، ومحاولة قيمة في انتقاد العقل الصرف .

لقد تزعم ابن رشد الدفاع عن المنطق وأقيسة فلسفة المدرسة التقليدية الجدلية ، فأخذ ينتقد (تهافت الفلاسفة) صفحة صفحة ، فى كتاب سماه (تهافت التهافت) (١) وهو وان كان يعترف بما وقع لابن سينا من اغلاط ، فإنه فى الجملة يدافع عنه ، ويدعى ان آراء الفلاسفة متينة جداً ، وانها ترتكز على حجج

«١» فرد عليه من حيث الافكار ، ومن حيث الطريقة المتبعة فى البحث ، فآخذه برده على الفلاسفة عموما ، لان هذه طريقة عوجاء ، إذ يجب تحديد الموضوع ؛ كما يجب تقسيم المسائل : يبدأ الباحث بأصغر مسألة ، ثم منها ينتقل إلى مابعدها ، بصورة غير شاملة ؛ وهكذا يصعد من السهل الى الصعب. وهذه الطريقة التى أشار إليها ابن رشد ، وطبقها هو نفسه فى « تهافت التهافت » ، هى احد القوانين الاربعة التى وضعها (ديكارت) « في حديث المنهج » - انظر تفصيل ذلك في فصل : مذهب الشك - .

يقينية، لكن ابن رشد لم يبلغ كعب سابقيه الشهيرين (الغزالى وابن سينا) فى هذا الميدان ، كما انه لم يصل فى ءارائه فيما وراء الطبيعة الى مرتبتهما ، وتنقص اسلوبه المتانة الهندسية التى يصطبغ بها اسلوب ابن سينا ، و كذلك تنقصه السلاسة الظريفة التى يتحلي بهـا اسلوب أبي حامد ، ومن جهة اخرى فإن نظرية ابن رشد ليست في نفس الموضوع ، ويظهر انه كان يهتم (في مختلف المسائل التى كانت مطروحة على بساط البحث) بمعرفة الرأي الحقيقي لأرسطاليس ، اكثر من اهتمامه بوضع اقيسة قائمة بذاتها ، غير ان له تحليلات ذلقة ، وملاحظات تاريخية توجب المبالاة ، ويمكننا ان نؤيد ماقلنا بهذه السطور من كتاب (تهافت التهافت (١)) : « فإن قيل : فما تقول أنت في هذه المسألة ، وقد ابطلت مذهب ابن سينا في علة الكثرة ، فما تقول انت في ذلك؟ فإنه قد قيل : إن فرق الفلاسفة كانوا يجيبون في ذلك بواحد من ثلاثة أجوبة :

ا) ان الكثرة انما أتت من قبل الهيولى .

ب) انما جاءت من قبل الآلات .

ت) انما هي من قبل الوسائط .

«١» التهافت لابن رشد، طبعة القاهرة سنة ١٣٠٣ ص ٧١ .

وحكى عن آل ارسطو أنهم صححوا القول الذي يجعل السبب في ذلك التوسط ، قلت : (١)

« ان هذا لا يمكن الجواب فيه ، في هذا الكتاب ، بجواب برهانى ، ولكن لسنا نجد لأسطو ولمن شهر من قدماء المشائين هذا القول الذي نسب اليهم ، الا (لفوفوريوس Phorphire de Tyr الصورى) صاحب مدخل علم المنطق ، والرجل لم يكن من حذاقهم . والذي يجري عندي على اصولهم ، ان سبب الكثرة هي مجموع الثلاثة ، أعنى المتوسطات والاستعدادات والآلات ، وهذه كلها قد بينا كيف تستند إلى الواحد وترجع اليه ، اذا كان وجود كل واحد منها بوحدة محضة هى سبب الكثرة ، وذلك انه يشبه ان يكون السبب في كثرة العقول المفارقة ، اختلاف طبائعها القابلة فيما تعلق من المبدإ الاول ، وفيما تستفيد منه الوحدانية التى هي فصل واحد في نفسه ، كثيرة لكثرة القوابل له ، كالحال في الرئيس الذي تحت يده رياسات كثيرة ، والصنائع التى تحتها صنائع كثيرة ، وهذا نفحص عنه فى غير هذا الموضوع »

١) « ان مسألة اصل الكثرة فى الاحياء ، وكيف ان الكثرة تحصل ناشئة عن الوحدانية دون ان ينقصها ، لمن أهم المسائل في الفلسفة التقليدية المدرسية بالشرق » [تعليق للمسيو كارا] .

فإن تبين شيء منه والا رجع الى الوحى، واما ان الاختلاف يقع من قبل الاسباب الأربعة فبين، وذلك ان اختلاف الافلاك يكون من قبل اختلاف تحركها او اختلاف صورها وموادها، ان كان لها مواد، وافعالها المخصوصة فى العالم .»

*

* *

لم تقف المعركة عند هذا الحد، فقد جاء، بعد هؤلاء الرجال الثلاثة، خوجه زاده فصنف بأمر من محمد الثانى الفاتح، تهافتا ثالثا ليهدم كتاب ابن رشد، وينتقم لعلم الكلام، وليظهر مرة أخرى ضروريتنا إلى الإيمان، وان العقل ضعيف (١).



«١» خوجه زادة باحث تركى توفي سنة ٨٩٣ هـ .
كما تصدى الى الخوض في هذه المعركة الجدلية، علاء الدين بن على الطوسى، فوضع كتاباً سماه (الذخيرة فى المحاكمة بين تهافت الفلاسفة)

على هامش كتاب تهافت الفلاسفة

يمكننا أن نحصر الفكرة الاساسية لكتاب تهافت الفلاسفة في قولنا : ان الغزالي يرى استحالة وصول المرء للحقائق عن طريق العقل ، لان العقل ضعيف عاجز ، وان الآراء الفلسفية ضالة مضلة لا ترتكز إلا على شفير هيار ، وان الفلسفة كلها خبط ولغو .

للنظرية الاولى (انتقاد الحكم العقلى) أنصار من أقطاب الفلسفة الأوروبية الحديثة مثل كانط (Kant) كما رأينا ـ واستاذه دفيرهيوم David Hume (فيلسوف ومؤرخ أنجليزى ١٧٧٦ ـ ١٧١١) ، فالغزالي يحلل موضوعا من الفلسفة في حين أنه يحاربها فهو يعتمد على مبادىء فلسفية فى تهديم الفلسفة ، يقول في كتاب المنقذ من الضلال :

« ... فالأنبياء أطباء أمراض القلوب ، وإنما فائدة العقل

وتصرفه أن عرفنا ذلك ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز

عن درك مايدرك بعين النبوة ، واخذ بأيدينا وسلمنا اليها تسليم العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين . والى ههنا مجرى العقل ومخطاه ' وهو معزول عما بعد ذلك الا عن تفهيم مايلقيه الطبيب إليه » . فهذا موقف سلبى محض ، لكنه فلسفى بالرغم عن الغزالي (١)

☆☆☆

١) ان القاضى أبا الوليد بن رشد 'فى زمرة من الفلاسفة ' يعتقد ان أبا حامد انما يقول [في كتابه تهافت الفلاسفة] بفمه ماليس في فكره ، فزعم ان ثمة رسالة [مقاصد المقاصد] شرح فيها ابو حامد مايرمى اليه من حملته على الفلاسفة .

ويظهر لى انه تظاهر بالحملة على الفلسفة إرضاء لاهل السنة ، ونحن نعلم ان السنيين كانوا اذ ذاك اقوياء (٢) ، وان الغزالي

---

١) فهو كما يقول عنه م كارا (انظر ص١٦٦ من هذا الكتاب : « ماهر فى هذا الفن الذى اراد ان يظهر بطلانه » .

١) انظر كيف يصف ابن رشد هذا التلون فى ص ١٩ من كتابه فصل المقال «مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنــة ١٣١٧» : « .. إنه لم يلزم مذهبا من المذاهب فى كتبه ، بل هو مع الاشاعرة اشعري ، ومع الصوفية صوفى ، ومع الفلاسفة فيلسوف ، وحتى إنه كما قيل :

يوما يمان،إذا لاقيت ذايمن ❁ وإن لقيت معديا فعدنانى » .

كان يبخل بكتبه على [النار] وبسمعته على [المحاربة] (١) .

وها عبارات يصرح فيها ابن رشد بشكه في اخلاص الغزالي فيما ادعاه في التهافت :

« فتعرض ابي حامد الى مثل هذه الاشياء ، على مثل هذا النحو من التعرض لا يليق بمثله ، فإنه لايخلو من احد امرين :

١) إما انه فهم هذه الاشياء على حقائقها ، فساقها هاهنا على غير حقائقها ، وذلك من فعل الاشرار .

٢) وإما انه لم يفهمها على حقيقتها ، فتعرض الى القول فيما لم يحط به علما ، وذلك من فعل الجهال .

والرجل يجل عندنا عن هذه الوصفين ، ولكن لابد للجواد من كبوة ، فكبوة ابى حامد هي وضعه هذا الكتاب - أي تهافت الفلاسفة - ولعله طرأ إلى ذلك من اجل زمانه ومكانه » .

فالنبوغ منذ وجد وهو فى حاجة الى انصار اقوياء ، افرادا واحزابا ، ليحيطوا بشعله فيردوا عنه الزوابع من الإطفاء ، ويعينوه على نشر نوره ، وقد فطن لهذا أبو حامد منذ بدأ فكره يلمع في ميدان المعرفة والمناظرة ، فانكمش تحت جبة نظام الملك

---

١) وقد رمى بالزندقة قبل ذلك .

الوزير الشهير ، كما تدثر بأذيال الخلفاء والوزراء ، ابو يوسف الكندي وابو نصر الفارابى والشيخ الرئيس ابن سينا ، فلا بد للنبوغ من (مصين Mécène) كما يقول الافرنج ، أومن رشيد ومامون كما ينبغى ان نقول نحن .

☆☆☆

٢) كما لا يبعد ان يكون الغزالي مر ببعض ازمات الارتياب ، فاندفع تحت وطأتها الى تسطير هجومات على الفكر والمنطق ، ثم بعد ان هدات ثورته وتأججاته عمل على تهديم ماصدر منه اولا . وهذا الراي هو الذي يبرر كتابة الغزالي (بعد انتهائه من كتاب التهافت) بعض الرسائل والمصنفات ينتقد فيهاماقدمه في تهافت الفلاسفة ، وعودته الى تأييد مبادىء الفلسفة ، وبناءه من جديدما عمل على تهديمه من قبل .

وكثيرا ماتاتى الازمات الروحية فجأة ، ثم تنصرف فجأة ، ومثل ذلك يحصل احيانا حتى في الازمات الجسدية او الاقتصادية فى الشعوب : « فكثيرا مانلاحظ اننا في الشهر الماضى حكمنا على شيء بكذا ، وانا حكمنا كان مطبوعا بحالة فكرية خاصة ، واننا الآن لانرى مثل ذلك الحكم ، وهكذا تتبدل من سنة لاخرى

نظريا تنافي الاشياء، فما كان وهما يصبح حقيقة، وما كان مهما يضحى لاقيمة له، دون ان نعرف لهذه الانقلابات من سبب » عن كتاب (Text-Book) في قواعد علم النفس لـ (وليام جيمس W. James)

ويقول (برجسن Bergson) في هذا المعنى، بعدان فرق الانسان الى شخصين، الشخص العميق Le moi profond الذي يتجلى في عالم الافتطار، والشخص السطحي Le moi superficiél الذى ميدانه العقل واللسان (١)

« بينما الشخص السطحي يتركب من افكار فاترة لاحركة فيها ودائمة التماثل بعضها مع بعض، بينما نرى الحركة صفة ذاتية في الشخص العميق، ومقر هذا التغيير الذى لاينقطع ليس في المرور من حالة الى الحالة التى بعدها فحسب، بل في التحول المسترسل لهذه الحالات نفسها ».

☆☆☆

٣) من بين العشرين مسألة [التى تقدم الكلام (٢) عليها] تصدى على الخصوص لدحض ثلاث، وهي :

أ] قول الفلاسفة إن العالم قديم [وهي المسألة الاولى

---

١) انظر إيضاح هذه المسألة فى بضع ثوان مع الدكتور زكى مبارك

٢) انظر الفصل السابق

والثانية ، اى ازلية العالم وأبديته]

ب) قولهم إنه تعالى لا يعلم الجزئيات الحادثة من الاشخاص [وهى المسألة الثالثة عشرة] .

ج) إنكارهم بعث الاجساد وحشرها [المسألة العشرون] .

فما هو السر فى امتياز هذه النقط على غيرها ؟

ان لهذه المسائل الثلاث مساسا مباشرا بالدين الاسلامى ابرز مما في غيرها ، وفي هذا التخصيص نتيجتان ربما قصدهما الغزالي .

الاولى : ربح العامة الى جانبه ، لانه اخذهم من الناحية الدينية ، اى انه ضرب على وترهم الحساس .

الثانية جلب اهل السنة وتكتيلهم حوله ، لانه حارب اعداءهم ، « وعدو العدو صديق » .

هذا فرض من الفروض ، وليس بمحال ان يكون صحيحا ، فالغزالي انسان قبل كل شىء ، يجوز في حقه من المحامد والمساوى ما يجوز في حق بقية الناس ، وليس ببعيد كذلك ان يكون هذا الفرض خطأ ، ولكن التفكير الحر والبحث العلمى يفرضان علىّ مثل هذا التصريح ، مما أرى من مثل هذه الفروض .

*

* *

٤) فإذا صح ماقدمت يكون كل ذلك صادرا عن دهاء وسياسة أبى حامد : « أليست قيمـة العقل فى القدرة على لبس لكل الظروف ماينا سبها » كما يقول (Paulhan بولهن) في المجلة الفلسفية [دسمبر ١٨٨٨] ؟ أما من الناحية النفسية ، فيظهر لى ان هناك باعثين آخرين دفعا بالغزالي إلى تأليف [كتاب تهافت الفلاسفة] ثم إلى البحث على الخصوص في تلك النقط الثلاث ، أذكر أيضا هذين الباعثين حبا في الوصول إلي الحقيقة العلمية التى هى فوق الافراد ، والتى يجب ان يكون التعصب لها فوق كل تعصب لسواها ، على أنى لا أثبت . ولا أنفى ، وهما :

أ) حب الظهور والشهرة ، وهو شيء جبلي فى الانسان

ب) الحسد : « وقديما كان (١) فى الناس الحسد » .

حاول أبو حامد أن يظهر بالتغلب علي الفلاسفة ، من أرسطو المعلم الأول إلى معاصريه ، (٢) كى يقـول النـاس [الاشاعرة

---

(١) عمر بن أبى ربيعة .

(٢) « فقد نرى ان اباحامد قد غلط على الحكمـاء المشائين فيما نسب اليهم من انهم يقولون انه تقدس وتعـالى لا يعلم الجزئيـات اصلا ، بل يرون انه تعالى يعلمها بعلم غير مجانس لعلمنا بها . . . » ابن رشد ، فصل المقال ص ١١ .

والعامة منهم على الاخص]. إنه حارب المتكلمين و الفلاسفة فى ميدانهم فانتصر عليهم [ونشوة هذا التغلب لا تكلف]

ثم تعرض بصفة خاصة الى سابقيه الحكيمين الفارابى وابن سينا ليسفه اقوالهما ، وبالطبع ليسقطا من أعين مقدريهما [لصالح شهرته] ، لأنهما امتازا قبله بالحكمة وبعد النظر ، فالتنافس هو الذى دفع به إلى منازعتهما البقاء على صفحات تاريخ الخلود فى التاريخ الاسلامى :

« ... ثم المترجمون لكلام ارسطاليس لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل محوج الى تفسير وتأويل ، حتى أثار ذلك ايضا نزاعا بينهم ، واقومهم بالنقل و التحقيق من المتفلسفة الاسلامية الفارابى ابو نصر وابن سينا ، فلنقتصر على ابطال ما اختاراه ورأياه الصحيح من مذهب رؤسائهم فى الضلال ، فإن ماهجراه واستنكفا من المتابعة فيه لا يتمارى فى اختلاله ، ولا يفتقر الى نظر طويل فى ابطاله ، فليعلم أنا مقتصرون على رد مذاهبهم بحسب نقل هذين الرجلين كيلا ينتشر الكلام بحسب انتشار المذهب » . [فقرات من المقدمة الاولى لكتاب تهافت الفلاسفة]

***

لم تكن حزازات الحسد لتقف به عند هذا الحد ، من جعل الحملة موجهة بالاخص ضد هذين الحكيمين ، بل عمل على تغريقهما في وابل من سخط العامة ولعنات الدهماء ، فكفرهما في جملة من كفر من الملاحدة والمتفلسفين ، انظر مايقول في خاتمة الكتاب :

« فان قال قائل : قد فصلتم مذاهب هؤلاء ، أفتقطعون بكفرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم ؟ (قلنا) تكفيرهم لابد منه في ثلاث مسائل [احداها] مسألة قدم العالم ، وقولهم ان الجواهر كلها قديمة . [والثانية] قولهم ان الله تعلى لايحيط علما بالجزئيات الحادثة من الاشخاص . [والثالثة] في انكار بعث الاجساد وحشرها .

فهذه المسائل الثلاث لاتلائم الاسلام بوجه ، ومعتقدها معتقد كذّب الانبياء ، وانهم ماذكروه على سبيل المصلحة تمثيلا لجماهير الخلق وتفهيما ، وهذا هو الصريح الذى لم يعتقده احد من فرق المسلمين ، فأما ماعدا هذه المسائل الثلاث من تصرفهم في الصفات الإلهية واعتقاد التوحيد فيها ، فمذهبهم قريب من مذاهب المعتزلة ، ومذهبهم في تلازم الاسباب الطبيعية هو

الذى صرح المعتزلة به في التولد ، وكذلك جميع مانقلناه عنهم قد نطق به فريق من فرق الاسلام ، الا هذه الاصول الثلاثة. فمن يرى تكفير اهل البدع من فرق الاسلام يكفرهم ايضا به ، ومن يتوقف على التكفير يقتصر على تكفيرهم بهذه المسائل. واما نحن ولسنا نؤثر الآن الخوض في تكفير اهل البدع وما يصح منه وما لايصح كيلا يخرج الكلام عن مقصود هذا الكتاب ». (١)

*

* *

دافع القاضى ابو الوليد . عن الفاربى وابن سينا، وعن الفلاسفة على العموم ، وتصدى لمناقشة ابى حامد في هذه المسائل الثلاث من جملة ماناقشه فيه ، لكننى ألاحظ هنا (على مايقوله حجة الإسلام في خاتمة الكتاب) ملاحظة صغيرة فاتت

---

١) للدكتور زكى مبارك الاخلاق عند الغزالى ص ١٢١) رأي سديد حول اختلاف آراء الغزالى في كتبه باختلاف سنه وصحته : «قد وضع مؤلفاته في ظروف مختلفة ، كان في بعضها يحكم العقل والشرع ، وكان في بعضها يساير الصوفية في اوهامهم ووساوسهم . والرجل في الواقع معذور ، فقد كان يؤلف في اوقات لاتصلح مطلقا للتاليف ، لانه يشترط في المؤلف ما يشترط في القاضى من الصحة وهدوء البال ».

ابن رشد على مايظهر ، وهي ان الغزالي يصرح بأن هذه « النقط الثلاث » تجر الى الكفر لانه لم يعتقدها احد من فرق المسلمين ، بخلاف النقط الاولى « السبعة عشر » فقد قال بها بعض المذاهب الاسلامية .

فمعنى هذا ان كل فكرة لم يرها مذهب من مذاهب الاسلام فهي غلط بل كفر ومعتقدها كذب الانبياء « ومثل ذلك الاصول الثلاثة » .

كما ان كل فكرة تقدم لفرقة من فرق الإسلام ان اعتقدتها « او اعتقدت مايقاربها » فليست بكفر ، وانما صاحبها من اهل البدع « ومثل ذلك : المسائل السبعة عشر » .

فهذا حكم جزيف لايتفق والمنطق !

وفي « المنقذ من الضلال » فصل كذلك في تكفير الفلاسفة وذكر اصنافهم « من ص ١٠ الى ص ٢٠ »

☆☆☆

ينقل الاستاذ لطفي جمعه ، في كتابه تاريخ فلاسفة الاسلام ص ١٧٣ ، ان القاضي ابن رشد قال عند فحصه لكتب الغزالي :

« ... ثم قال (اى الغزالي) في كتابه « جواهر القرءان » ان

الذى اثبته في كتاب تهافت الفلاسفة هي اقاويل جدلية ، وان الحق انما اثبته في (المضنون به على غير اهله) . غير ان الاستاذ جمعه لم يشر الى الصفحة التى نقل منها عن ابن رشد هذا التصريح المهم للغزالي .

وقد رجعت الى كتاب جواهر القرءان بالنسخة العربية (الطبعة الثانية سنة ـ ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م بالمطبعة الرحمانية) فلم اعثر على نفس هذا التصريح باللفظ ، ولكن وجدت فقرتين تشيران الى ما يقرب من هذا المعنى :

الفقرة الاولى « ص ٢١ » يقول أبو حامد :

« ... والثانى هو محاجة الكفار ومجادلتهم ، ومنه يتشعب علم الكلام المقصود لرد الضلالات والبدع وإزالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين ، سمينا الطبقة القريبة منها الرسالة القدسية ، والطبقة التي فوقها الاقتصاد في الاعتقاد ، ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، ولا يكون هذا العلم ميلا بكشف الحقائق ، وبجنسه يتعلق الكتاب الذى صنفناه فى تهافت الفلاسفة »

الفقرة الثانية « ص ٢٤ » يقول :

« ... ويتلوه فى الشرف علم الآخرة ، وهو علم المعاد ، كما ذكرناه في الاقسام الثلاثة ، وهو متصل بعلم المعرفة ، وحقيقته معرفة نسبة العبد الى الله تعلى عند تحققه بالمعرفة . أو مصيره محجوبا بالجهل ، وهذه العلوم أربعة : أعنى علم الذات والصفات والافعال ، وعلم المعاد أودعنا من أوائله ومجامعه القدر الذى رزقنا منه ، مع قصر العمر وكثرة الشواغل والآفات ، بعض التصانيف لكننا لم نظهره ، فإنه يكل عنه أكثر الافهام ويستضر به الضعفاء ، وهم أكثر المترسمين بالعلم ، بل لا يصح إظهاره إلا على من اتقن علم الظاهر وسلك فى قمع الصفات المذمومة من النفس ، وطرق المجادلة حتى ارتاضت نفسه واستقامت على سواء السبيل . فلم يبق له حظ في الدنيا ولم يبق له طلب إلا الحق ، ورزق مع ذلك فطنة ، وقادة ، وقريحة منقادة ، وذكاء بليغا ، وفهما صافيا . وحرام على من يقع الكتاب بيده ان يظهره الا على من استجمع هذه الصفات ... » .

فى الفقرة الاولى تصريح بالتهافت وبأن قصد الغزالي محاجة الكفار ومجادلتهم.

وبالثانية تلويح بمصنف من مصنفات الغزالي يظهر لى من

خلاله ان الكتاب المشار اليه هو المضنون به على غير أهله [الاكبر] . اما على حسب رواية صاحب كتاب تاريخ فلاسفة الاسلام فابن رشد يصرح بالمضنون به على غير اهله ، ويرجح كذلك مصحح «جواهر القرءان» المطبعة ، الرحمانية،ان يكون ذاك المصنف هو المضنون ، يقول في الفهرس ملخصا للفصل [ص ١٦٩ رقم ١٨] :

« الفصل الرابع في كيفية انشعاب العلوم الدينية كلها من الاقسام العشرة ... ويذكر شروط أهلية الطالب لمطالعة هذا الكتاب ، ولعله يسمى المضنون به على غير أهله »

*

* *

لفيلسوف الاندلس ابن الطفيل تصريح مهم حول هذا الموضوع في رسالة حى بن يقظان [ص ١٠ ، النسخة العربية الفرنسية ، طبعة بيروت لليون جوتيى Léon Gautier الطبعة الثانية] : « .. وكتب أبى حامد ، فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع ويحل فى آخر ، ويكفر باشياء ثم يستحلها ، ثم إنه من جملة ماكفر به الفلاسفة ، في كتاب التهافت ، إنكارهم لحشر الاجساد وإثباتهم الثواب والعقاب للنفوس

خاصة (١) ثم قال فى أول كتاب الميزان : إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع. ثم قال فى كتاب المنقذ من الضلال والمفصح بالاحوال: ان اعتقاده كاعتقاد الصوفية. وأن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث. وفى كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل فى آخر كتاب ميزان العمل (٢) ،حيث وصف أن الرأى ثلاثة أقسام :

أ] رأي يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه

ب] ورأي يكون بحسب مايخاطب به كل سائل مسترشد،

ج] ورأي يكون بين الانسان وبين نفسه لا يطلع عليه

---

١) ولابن رشد [ص . ١ ، كتاب فصل المقال طبعة ١٣١٧] : « (فان قلت) : وإذا لم يجب التكفير بخرق الاجماع في التأويل ، إذ لا يتصور فى ذلك إجماع ، فما تقول في الفلاسفة من أهل الاسلام كابى نصر وابن سينا ، فإن أبا حامد قد قطع بتكفيرهما فى كتابه المعروف بالتهافت، في ثلاث مسائل : في القول بقدم العالم ، وبأنه تعالى لا يعلم الجزئيات ، وفي تأويل ماجاء في حشر الاجساد وأحوال المعاد ؟ [قلنا] : الظاهر من قوله فى ذلك أنه ليس تكفيره إياهما في ذلك قطعا ، اذ قد صرح فى كتاب التفرقة ان التكفير بخرق الاجماع فيه احتمال ».

٢) ميزان العمل يقع فى ٢٠٠ ص [تقريبا] من الحجم الصغير وهو شبه تلخيص لكتاب إحياء علوم الدين .

الا من هو شريكه فى اعتقاده ... » .

مرحى مرحى لابى بكر بن الطفيل ، انه وأيم الحق قد قال الحق ، فاحسن تلخيص لدراسته آثار الغزالي قد تضمنته هذه الجمل ، وهي وحدها كافية لان ترسل أشعة على الموضوع.

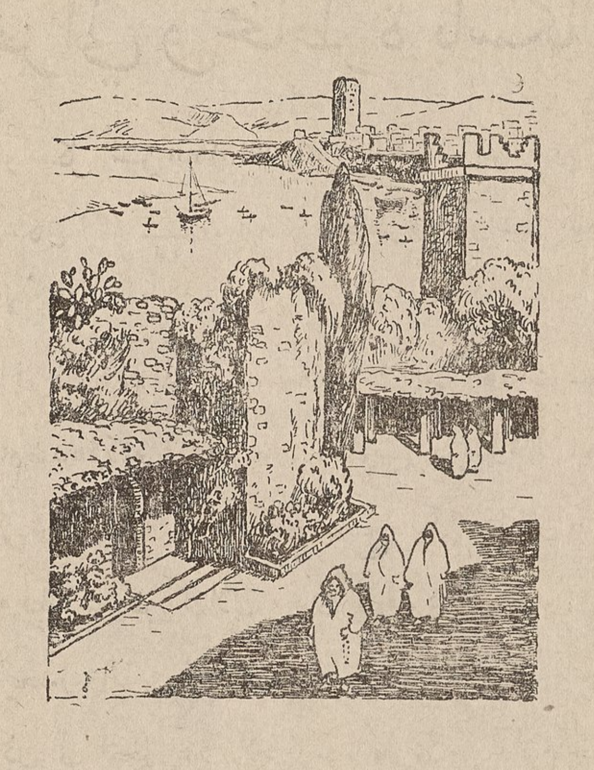
ومن الذين لاحظوا كذلك على الغزالي تناقضه الامام ابن تيمية ، وقد اثبت ان أبا حامد تشكك فى مذهب الصوفية فى آخر عمره ، فأعرض عن تلك المبادئ وانكب على دراسة الحديث عله يجد فيه ضالته، لكنه ويا للاسف لم يكتب شيئاً حول هذا الطور الأخير من حياته ، والحل الاخير لبحثه عن الحقيقة.

☆☆☆

ان الغزالي متشكك ، ومن هنا كثرة تناقضه ، ومن ناحية أخرى فيلسوف يخاف من الفكر العام ، وهذه الظاهرة تتجلى حتى ، في كتاب المنقذ من الضلال الذي يصرح فيه ، بملء شدقيه أنه يمقت التفلسف ويستعيذ بالله وببركة التصوف من شر الفلاسفة ، يظهره [المنقذ] فيلسوفا [بالرغم عنه] لان نَفَس هذا المصنف نَفَس فلسفى ، حتى إن مافيه من (تصوف) فمن تأثير مزدوج من الدين والفلسفة (١) .

---

١) ارجع الى فصل «على هامش الكتب الفلسفية »



الغزالي ومخاطرة باسكال

نشر ميكل أسين Miguel Asin (١) دراسة ممتعة عن الذين سبقوا باسكال (٢) في مسألة (المخاطرة)، وأعطى للغزالي المرتبة الأولى.

إننا نعرف هذه المسألة الذائعة الصيت التي أحدثت ضجة في أيامنا، فقام ضدها كثير من مفكرينا من بينهم سيلي برودوم،(٢) وهي:

يمكن ان يكون الدين تماما غير صحيح، لكن اذا كان صحيحا ولم نتبعه فإننا نتعرض لهلاك أبدى كالخلود فى جهنم، مع ان الدين لايحذرنا الا من لذات محدودة في هذه الحياة، فالبصيرة ترشدنا إذن إلى التخلي عن ملاذ فانية للتحري من آلام خالدة، كيفما كان مقدار الضعف في حجج الدين، على شرط الا تكون في أقل درجة من الضعف (٣).

---

١) مستشرق إسباني معاصر.

٢) انظر الكلام عليه في آخر الفصل.

٣) ياتي التعليق على هذا في اخر الفصل.

ان هذا القياس يوجد بالفقرات التى أتى بها (أسين) فى عاطفة لاتقل كثيرا عن حدة الشرح الهندسى.

ونحن لا نجهل ان المفكرين كانوا في زمن باسكال يعملون على اكتشاف (Le calcul différentiel : عملية التغيرات الصغيرة التى تحصل في الاعداد)، وان مسألة الاعتبارات فى اللانهاية (١) في الكبر والصغر كانت ذات حظ مهم فيما كان يعتري فكر هذا العبقري من تشويش واضطراب فى الناحية الدينية.

كان الغزالي يخصص بقياسه الأطباء وعلماء الطبيعة الماديين الذين ربما احتفظوا ببقية الشك في إنكارهم ونفيهم، قال (مامعناه بإجمال):

إذا كان عندهم شك، فيكفيهم هذا الريب البسيط ليزهدوا فى هذا العالم، فلنفرض أن رجلا وجد طعاما لذيذا، لكنه خطر بباله اذ ذاك انه يمكن ان يكون مسموما أو أن حية قد مسته بلسانها، فإنه يقينا يمتنع عن الاكل منه ليصون نفسه من خطر الموت، وفى نفس الوقت لايحرمها الا من لذة ضئيلة، فكيف يمكن الإنسان العاقل ان يتردد لحظة أمام احتمال وجود نار خالدة؟ فهلا كان

---

١) انظر فصل اللانهاية.

٢) انظر Le Pari (Pensées et opuscules)

هنا للاحتمال الصرف ما لليقين ؟ قال ابو العلاء مشيراً الى هذا القياس :

« قال المنجم والطبيب كلاهما: ❀ لا تبعث الاموات، قلت: اليكما، ان صح قولكما، فلست بخاسر (١)، ❀ أو صح قولي، فالخسار عليكما » .

(انظر كتاب إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٤٣، و كتاب الاربعين - للغزالي أيضا -) .

انتهى كلام (م كارا) .

*

* *

تعاليق

(١)

٢) باسكال Blaise Pascal (١٦٦٢ - ١٦٢٣) رياضي كبير وفيلسوف فرنسي .

لمجموعة رسائله (Les Provenciales) التي يناضل فيها عن (الجانسينيست Jansénistes) ضد اليسوعيين (Les Jésuites) شهرة كبيرة .

---

١) انظر التعليق على هذا في ءاخر الفصل .

اتبع أولا مذهب ديكارت ، وكان يفرق بين الإيمان وبين العقل، ويحبذ الناحيـة الفكرية ، ثم تشيع لمبـدإ (بور روايال (Port-Royal) أي لمذهب الجانسينيست، فأوجد بابا للشك، واصبح يرى أن الطبيعة الانسانية قبيحة ، وان العقل يقود للوبل إذا لم يوفق بإلهام خارجي وإغاثة إلهية (La grâce).

تقول أخته (جيلبيرت Gilberte) إنه اكتشف ـ دون أن يستعين بأي كتـاب ـ الاسس الأولى في هندسة أقليدس ، ولم يكن سنه إذ ذاك يتعدى الثانية عشر . وفى السادسة عشر من عمره كتب مصنفا فى حل بعض المشكلات العويصة في هذا العلم ، الشيء الذي نال به إعجاب اكبر المفكرين الفرنسيين في عصره وعند الثامنة عشر اخترع آلة تحسب بنفسها.

وله اكتشافات مفيدة فى الطبيعيات .

طبع بعد وفاته مصنف صغير ديني فلسفي ، يعد من أحسن ماكتب فى الآداب الفرنسية، تحت اسم (الافكار (Pensées et opuscules) وفى هذا المصنف توجد (المخاطرة) .

*

* *

(٢)

٢) بريدوم Sully Prudhomme ولد ومات بباريز ١٩٠٧ ـ ١٨٣٩). شاعر مبدع ، يعد من زعماء المدرسة البرناسية (L'école parnassienne) ويمتاز أسلوبه بدقة غريبة في وصف الخلجات النفسية ، وبشعره أحيانا كدر ولكنه كدر خال من المرارة.

وها عناوين بعض قطعه المشهورة : العدل والسعادة (من الشعر الفلسفي) ، الاختبارات والقصائد (من الشعر الوجداني) . وترجم له الدكتور طه حسين بعض القطع في كتابه (حافظ وشوقي) وهي كافية لان تعطي صورة عن فن الرجل.

وتدور فلسفته حول تصادم الفكر مع العواطف .

*

* *

(٣)

٣) ومثل هذا الاحتجاج (تقريبا بالحرف) ياتي به الغزالي في كتاب (المنقذ من الضلال) ، قال :

« .. فإني تتبعت آحاد الخلق أسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع) وهؤلاء هم الذين يسميهم باسكال في كتابه الافكار بـ :Les Libertins) ، وأسأل عن شبهته ، وأبحث عن عقيدته وسره ' وقلت له : مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تومن بالآخرة ولست

تستعد لها وتبيعهـا بالدنيا ، فهذه حماقة ، فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة؟ . . ».

وللمسيو كارا ملاحظة على هذا النوع من (المخاطرة) أو الإيمان خوفا من العقوبات :

« يظهر لى أن أهم اعتراض يمكن أن يوجه الى هذه الحجة، هو أنه إذا اعتنق المرء دينا خوفا من العقوبات، فليس ذلك في الحقيقة بإيمان ، ثم إذا كانت هناك أديان متعددة، وكان الاحتمال فيها يقبل الصحة ، فيجب أن نتبع منهـا الدين الذي ينذرنا بالعقوبات الصارمة ، وهذه عملية من قبيل العمليات التجارية ».

*

* *

(٤)

٤) وأشار إلى هذا المعنى نفسه البوصيري في البردة (أي إلى تحبيذ الآخرة على الدنيا ، بيد أن البوصيري يتكلم بعاطفة المومن المتيقن بوجود آخرة ونعيم خالد، والمتخوف من العقاب والخسارة الدائمة :

« فياخسارة نفسي في تجارتهـا ❀

لم تشتر الدين بالدنيا ولم تسم ❀

ومن يبع أجلا منه بعاجله ❀ يبن له الغبن في بيع وفى سلم».

على أن القرءان الكريم قد سبق كلا من الغزالي، وباسكال، والبصيري، والمعري، قال الله تعلى :

« وقال رجل مومن من ءال فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم! وان يك كاذبا فعليه كذبه، وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ».

(الأية ٢٨، الحزب ٤٧ سورة حم غافر الذنب).

وجاء فى الانجيل (إنجيل متى، الإصحاح الثالث عشر (٤٤ ـ ٤٦) صورة ترمز إلى هذا المعنى :

٤٤، «أيضا يشبه ملكوت السماوات كنزا مخفى فى حقل وجده إنسان فأخفاه، ومن فرحه مضى وباع كل ماكان له واشترى ذلك الحقل. (١)

٤٥، أيضا يشبه ملكوت السماوات إنسانا تاجرا يطلب لآلئ حسنة

٤٦، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ماكان له واشتراها. (١)

★★★

١) هذا الحقل وهذه اللؤلؤة هما الآخرة كما يظهر . على أني لا اريد أن أثبت هنا بهذه المقارنات أن فكرة المخاطرة معادة تماما، وإنما أحاول أن أظهر مافي جميعها من شبه . وللقاريء ان يوازن بينها .

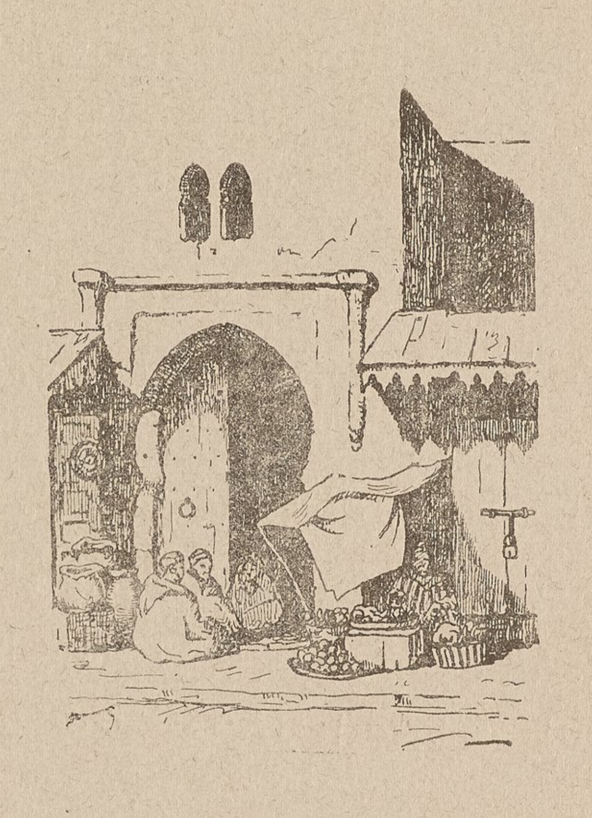
ونلاحظ هنا ان المعري وباسكال متفقان على طول الخط، مع اعتبار المعري من اللاأدرية، أو حملا لشعره على انه تعبير عن خطرات ساعة، شأن السوداوى.

كما ألاحظ أيضاً ان المعرى اقل هدوء في تفكيره وارتيابه - لانه متشكك - من الغزالى وباسكال لانهما مومنان.

*

* *

وهناك من جهة اخرى فرق دقيق بين مخاطرة باسكال واحتجاج الغزالي على منكري الدين، فمذهب باسكال لا يكفي في الدين، لان الايمان لا بد فيه من العقد الجازم، فانتقاد م كارا (فى تعليقه) لا ينطبق تماماً على مخاطرة الغزالي بقدر ما يصيب الهدف فيما يخص مخاطرة باسكال، لان أبا حامد يقرر بحجته الجدلية، ان فى الدين السلامة من الخطر الاخروي على وجه محقق، فتكون على هذا نظريته تفسيراً لقول الرجل من آل فرعون (في الاية).



اللانهاية

(١)

إيضاح جبري :

أ) إن الأعداد لانهائية من حيث الكبر :

إذا قلت إن فلانا يملك مليارا من الدولار فهذا أكبر رأس مالي، (١) أجيبك بأن الشركة الفلانية تملك مليارين، فهي إذن أغنى منه.

ولكن، هل ملياران هو أكبر عدد موجود ؟

لا، طبعا، لأن البحر الابيض المتوسط يحتوي على عدد أكبر من مليارين من المياتر المكعبة من الماء، واكبر من هذا عدد مياتر المحيط الاطلانطيكي.

ويجب الا نقف هنا، فأكبر من مياتر ماء المحيط الهادي عدد ذرات هذا الماء.

على هذا النحو نجد لكل عدد كبير عدداً اكبر منه، وان

---

١) مقترسمل .

كل عدد مهما عظم قابل لان يضم لآخر كبير أو صغير فيكون العدد الناتج اكبر من العددين المضمومين، وهلم جرا، فالعدد الآتي:

٢،٠١٤،٠٠٠،٦٠٠

عدد كبير، لكن إذا أضفنا له واحداً مثلاً، صار العدد الثانى اكبر من الاول:

٢،٠١٤،٠٠٠،٦٠١

نتيجة أولى:

لا يوجد أي عدد أكبر يبلغ اللاّنهاية في الكبر.

*

* *

ب) إن الأعداد لا نهائية من حيث الصغر.

نتساءل الآن: ماهو اصغر عدد؟

أول مايتبادر للذهن هو الصفر، بيد أن المثال الآتي يفهمنا غير ذلك

نحن ثلاثة
لك ٥ فرنكات،
أما أنا فليس لى شيء وليس لغيرى على شيء،
وثالثنا مدين لآخر بفرنكات ١٣.

فيكون على هذا:
أنت أغنانا،
ويليك في الغنى من لاله ولا عليه (أي أنا صاحب السفر)،
وأقلنا طبعا من هو ملزم بتأدية ما عليه (اي ١٣).

فالحد إذن بين من يملك فرنكا واحدا ومن هو غريم بفرنك، من لا يملك شيئا وليس بذمته شيء، كما يتضح في (الصورة ١):

صورة 1

نسمي ماهو ملكك عددا موجبا،

ونلاحظ ان الاعداد الموجبة توجد على يسرة السفر، (وهي في الصورة 1 + و3 + و4 +)، وقد سبقت بعلامة الايجاب (+).

ونسمي الاعداد الاخرى التي هي دين عليك بالاعداد السلبية،

ونلاحظ ان الاعداد السلبية على يمنة السفر (لانها اصغر منه)، وهي في هذه الصورة (٥ ـ) و(٣ ـ) و(٢ ـ) و(١ ـ)، وانها مسبوقة بعلامة السلب (ـ).

ملاحظة عامة :

كل عدد قارب الصفر فهو اكبر من الاعداد التى على يمينه ،

فـ (١ ـ) أكبر من (٣ ـ) و(٣ ـ) اكبر من (٥ ـ).

فما هو أصغر عدد إذن ؟

إن (١٣ ـ) أصغر من (1 +) بل أصغر حتى من (١ ـ) لأن

(١٣ ـ) أبعد من (١ ـ) عن الصفر.

فإذا كانت ثروة مدينة ما قدرها :

٧٠٠، ٢٠٠٠، ٢١، ٣.

فهي أغنى من الأخرى المدينة ما قدرها :

٧٠١، ٢٠٠٠، ٢١، ٣.

فالعدد الثانى أصغر من الاول لاننا زدنا (١ ـ) على الاول.

وعلى هذا النحو، إذا زدنا على أي عدد سالب عددا سلبيا

آخر، صغيراً كان أم كبيراً، فإن العدد الناتج عن عملية الضم أصغر

من العددين المضمومين، وهلم جرا.

نتيجة ثانية :

إنه لا يوجد عدد أصغر يبلغ اللانهاية في الصغر.

نتيجة عامة :

الاعداد لانهائية من حيث الكبر والصغر .

يرمز للّلاّنهاية بالعلامة الآتية ∞ مصحوبة بعلامة الإيجاب أو السلب على حسب الحالة (انظر الصورة ١) .

(٢)

تطبيق من القرآن العظيم

يظهر لي أنه يوجد مثال في القرءان العظيم للّلانهاية في حالتي الإيجاب والسلب .

قال تعالى :

« يوم يقول لجهنم : هل امتلأت ؟

وتقول : هل من مزيد ؟ » (١)

إن المتكلم يضع لجهنم هذا السؤال بعد أن يلاحظ ان عدد المعذبين قد بلغ (في نظره) الرقم القياسي ، أي اكبر عدد ممكن ، بيد ان السعير يجيب : هل من مزيد ؟ ومزيد فيه تنكير للتعميم ؛ فجهنم لم تحدد عدداً صغيراً أو كبيراً ، فهي تشعرنا بأنها ماتزال فاتحة بابها على مصراعيه لقبول الزيادة ، مهما عظمت هذه

---

١) وجاء في حديث (ساقه الامام ابن تيمية في العقيدة الواسطية ص ١٧ ، المطبعة السلفية ١٣٣٤ هـ) ان رسول الله صلعم قال : « لاتزال جهنم يلقى فيها وهي تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها رجله وفي رواية - عليها قدمه - فينزوي بعضها إلى بعض ، فتقول : قط ، قط » .

أو صغرت ، فهذا هو اللانهاية

لكن هل ياترى هذه اللانهاية إيجابية أم سلبية ؟

انها ايجابية (بالنسبة لجهنم) طبعا مادام مجموع أعدادها فوق السفر ، يعني أنها تقبل أفرادا وعددهم إيجابي .

فلنجعل الآن رمزا للجنة والنار ، على الشكل الذي يتبع في الحساب : فجهة السلب هي جهنم (لانها مقر الخاسرين ، فكل كافر سلبي بالنسبة لنفسه . ومن هنا اعتبارنا لوجود السلب) .

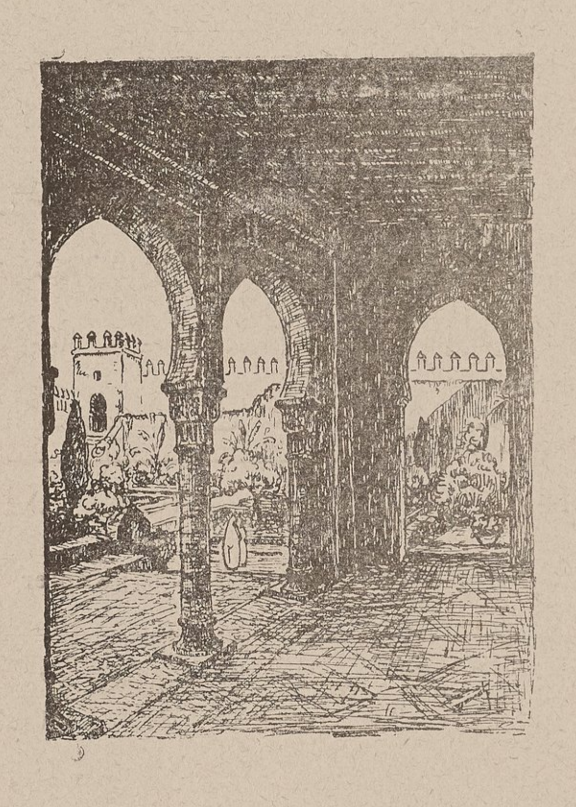
ونجد بين الرابح والخاسر مقر من لا له ولا عليه ، أي السفر (في الجبر) يعني (الاعراف) [1] في مثالنا ، لانه الحد الفاصل بين الجنة والنار (انظر الصورة ٢) :

صورة 2

١) انظر سورة الاعراف ، الآية ٤٨ .

والاعراف سور بين الجنة والنار . وعوضا من الاعراف يمكننا ان نجعل في الصورة الصراط ، فهو ، كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية « ص ٢٤ » : « الجسر الذي بين الجنة والنار » .

نستنتج أن هذه الآية قد أشارت الى اللانهاية ، ومن ناحية
أخرى قد احتوت على الإيجاب والسلب ، كل ذلك في بضع
كلمات لا أقل ولا اكثر . فما اكثر نواحي إعجاز القرءان ، وما
أعجز البشر عن أن ياتوا بمثله .



رأى الدكتور سشو Ed. Sachou

فى أبى حامد

لقد جاء في مقدمة لتاريخ البيرونى [1] بقلم الدكتور ساشو - بعد كلام كله إعجاب بالمؤلف ، وهو إعجاب لعمري فى محله - حكم قاس على الغزالي :

« قد شاهد القرن الرابع [2] انقلابا في تاريخ التفكير الإسلامى : فالرجوع الى العقيدة السنية حوالى عام ٥٠٠ قد ختم الى الابد سير البحوث الحرة ؛ فلولا الاشعري ، ولولا الغزالي ، لكانت الامة العربية أمةَ أمثالِ (غاليلى Galilée) و (كيبلير Kepler) و (نيوطن Newton » .

---

١) أبو الريحان محمد بن محمد البيرونى المتوفى سنة ٤٢٩ [ويقول صاحب الاعلام سنة ٤٤٠ ، وياقوت سنة ٤٣٠] ه . وهو رياضى وفيلسوف ورحالة عربى .

٢) بل القرن الخامس ، لان أبا حامد لم يزدد الا سنة ٤٥٠ .

انتهى ماروالام كارا عن الدكتور ساشو.

*

* *

Galilée غاليلي (١٦٤٢ - ١٥٦٤) عالم إيطالي، طبيعي وحيسوبي ومنجم.

اخترع آلات في الفيزيقي والتنجيم، كميزان الحرارة، والنظارة التنجيمية Lunette astronomique التي أعانته على اكتشافات مفيدة.

وهو زعيم النظرية: «إن الارض تدور حولي كالسيارات الاخرى»، هذه النظرية التي جرت عليه محاربة فعالة من الكنيسة ومن أصحاب المدرسة التقليدية الجدلية.

✩✩✩

أما كيبلير Jean kepler [١٦٣٠ - ١٥٧١] فعالم ألماني. تعاطى منذ صباه دراسة الرياضيات. وقضى طرفا من عمره في وظيفة منجم الامبراطور (رودولف) الثاني.

وله نظريات في المريخ.

أهم كتبه: التنجيم الجديد (ظهر سنة ١٦٠٩).

✩✩✩

ونيوطن Isaac Newton (١٧٢٧ـ ١٦٤٢) عالم أنجليزي، طبيعي ومنجم وفيلسوف.

وله في الحساب والفيزيقى اكتشافات مهمة، على رأسها قانون التجاذب العام، اوميل الاجرام بعضها الى بعض La gravitation universelle ، وهذا القانون يعد بحق الحجر الاساسى للعلوم الطبيعية الفيزيقية.



دحض الراي المتقدم

دفاع م كارا عن الغزالي

لاندرى كيف نعلق على حكم الدكتور ساشو. إننا لانعرف عن احوال انتاج العبقرية الا شيئاً نزراً. ومن ناحية اخرى، يجب ان نعتقد انه لو وجدت عبقرية إسلامية من طراز غليلى ونيوطن، لكانت لها القوة الكافية على خرق نفوذ الدين، مهما عظمت سلطته على الجمهور. (١)

---

١) وقد وجدت بالفعل شخصيات، من بينهم ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، والادريسى الجغرافى الشهير، وأبو حسن على المراكشى المنجم الكبير الذي أصلح أغلاط بطليموس [وأكتفى بهؤلاء المغاربة على سبيل المثال، ففى كثير من الشعوب الاسلامية وجدت أدمغة جبارة].

ثم إن الدين الاسلامى لم يقف فى طريق البحوث العلمية القحة فى يوم ما، بل على العكس راجت وانتشرت البحوث الحرة بفضل تشجيعاته وتسامحه وحضه على البحث [انظر فصل: تسامح الخلفاء، وفصل ماهو أصل علم الكلام].

ثم إن انتصار الغزالي لم يتم لان ابن رشد قد حاربه ، كما حاربه الكثير من المؤلفين الارتيابيين الذين اتوا بعده زد على هذا انه لم يصل إلى إيقافٍ نهائي لمناقشات علم الكلام .

ولقد شعر الفكر الإنساني بالشرق [قاطبا تقريبا] باحتياجه الى الانزواء تحت عقيدة ثابتة ، [وقد شعر الغرب فى نفس الوقت بمثل هذا الاحتياج] .

لماذا اذن أخذ النمو الفكري يضعف بالشرق ؟ إن هذا شيء غامض ولا يمكننا ان نعزوه الى مجرد تأثير مفكر او مفكرَين ! انه ليرجع من ناحية إلى شبه ملل في الذرية ، ومن اخرى الى أسباب سياسية . ويجب ان نلاحظ ان المارقين من الدين انفسهم كانوا يشعرون بالاحتياج الى السلطة ، مادام ابن رشد الذي ينظر اليه كخارج عن السنة يحترم سلطة ارسطو احتراما لم يعرف قبله .

وكانت بالغرب كذلك السلطة على الناحية العلمية اقوى صرامة منها في غير ذلك العهد ، وفي الوقت نفسه كان النفوذ الدينى يزداد توطدا ، حتى اذا ظهر غليلي وديكارت وجدا نفسهما مضطرين لا إلى مقاومة الاظانين الدينية فحسب ، بل إلى ان يناضلا

حتى ضد الطرق المتبعة إذ ذاك في البحث العلمي التي كانت الكنيسة تفرضها فرضا ، فمسألة السلطة كانت اذ ذاك تقريبا عامة بالعالم ، بيد ان المضادة التي انتشرت بالغرب ضد هذه السلطة ايام النهضة ثم زمن الثورة(1) لم تجد صداها في الشرق الا في ايامنا هذه .

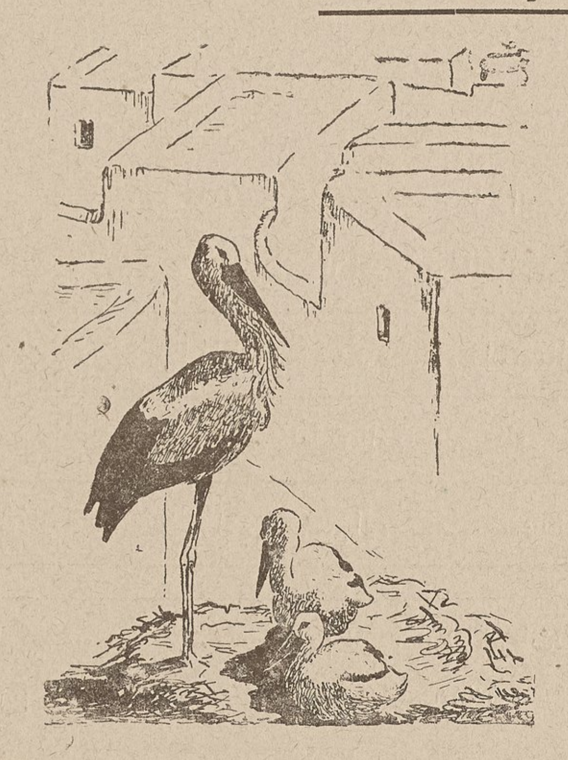
ومهما يكن من شيء فإننا لانستطيع ان ننكر عظمة الغزالي . حقا ، لم يكن فكرة متجها اتجاها علميا صرفا ، بل كان بالاخص فكرا ميالا الى علم الأخلاق والى الدين ، وقد اشعرنا الى انه كان مجددا في كثير من النواحي في هذا الضرب من المعرفة ، وانه اكثر تجديدا في الجملة من خصميه ابن سينا وابن رشد

وقبل ان يحارب ابو حامد الفلاسفة قام بهجمات ضد إفراطات المدرسة الجدلية التقليدية ، وضد سوء استعمال التعقل مطلقا ، وحتى ضد اصحاب السلطة الفكرية . فلقد بحث عن حدود العقل وأوما بدون ادنى التباس الى موقف اصحاب السلطة

1) يظهر انه يقصد النهضة الاوربية [التي بدأت بالانبعاث الايطالي في القرن ١٤] والثورة الفرنسية التي بدأت في سنة ١٧٨٩ .

من الإيمان ، وكان أخلاقيا وذا دراية بالتحليلات ، عالما بعلم النفس ، ويمكننا ان نعده من الطراز الحديث فيه ، وقد قدم علم النفس على الجدل او القياس المنطقي

واذا زدنا على هذا طهارة نفسه ، ووقار حياته ، واتساع خدماته ، ولين طبعه ، وباعه الكبير في الكتابة ، فإننا لانرى بدا من ان نختم بالتصريح بأن الغزالى احد كبار ممثلي التفكير الانسانى في القرون الوسطى .



الشك مبدا اليقين

الغزالي وديكارت

(١)

ديكارت (René Descartes ١٦٥٠ ـ ١٥٩٦) حيسوبي وفيلسوف فرنسي يعد مؤسس المذهب العقلي في العصر الحاضر.

تآليفه الفلسفية :

ا » حديث المنهج [١] Discours de la méthode

ب » كتاب التأملات فيما وراء الطبيعة Méditations métaphysiques

ج » كتاب الانسان Traité de l'homme

د » حديث الشهوات Traité des passions

وله مؤلفات اخرى في الرياضيات ، وقد لاءم بين العمليات

---

١) وعليه نعتمد في دراسة الشك عند ديكارت ، وهو أشهر كتبه وإن لم يكن أهمها .

الجبرية وعلم الميكانيك وعلم الهندسة :

فلسفته :

اساسها الشك في كل شيء حتى في حواسه وملكاته، ومن الشك يصعد الى الحقيقة . بدأ بقطع كل حبل يصله بما وصلت اليه معرفة الانسان ، غير معتمد على شيء آخر غير الفكر والاتساع (L'étendue) فكان يقول : « اعطوني اتساعا وحركة ابن لكم العالم »

وبما انه وضع اسس فلسفة جديدة ، رأى من الواجب ان يحدد قواعد جديدة للبحث ، فكتب « حديث المنهج » حيث بسط هاته القوانين الاربعة للتفكير :

١ » الا اقبل ابدا صحة اي شيء الا اذا اتضح لي بديهيا انه صحيح .

٢ » ان اقسم - الى اكثر ما يمكن من الاجزاء - كل صعوبة من الصعوبات التي اتناولها بالبحث حتى يتسنى لي تحليلها على احسن طريق .

٣ » ان اسوق افكاري بنظام ، بادئا بالمسائل البسيطة السهلة، لأرتفع شيئاً فشيئاً الى ادراك ماهو اكثر منها تعقيدا وتركيبا ، وان افرض ترتيبا حتى بين الاشياء التي ليس بينها

تتابع طبيعي .

٤ » أن أجعل في كل شيء تقسيمات تامة ، وأن القى نظرات عامة متكررة حتى اتيقن انى لم اغفل اي شيء » .

هذا ملخص تلك القوانين التى تعد بدعة في تاريخ الفلسفة بالقرن السادس عشر ؛ فلنلق عليها نظرة قصيرة :

فالقانون الاول يعطى للعقل حرية نافعة في الناحية العلمية ، ويدفع الفيلسوف الى الخروج من تقليد ارسطو المطلق ومن الانقياد لإيحاء العواطف وتأثير الخيال ، فليس هناك من واضح يدرك عن طريق الحواس ، وانما الواضح ما ادرك العقل وضوحه .

على ان في هذا الاستقلال المطلق للعقل افراطا : ان الوضوح لا يوجد في كل اصناف المعرفة ، فعلى هذا كلما انعدم الوضوح حصل الارتياب ، ومن هنا نصبح سوفسطائيين نرتاب في [التاريخ] وفي [ماوراء الطبيعة] مثلا ، لانهما علمان لا يخضعان لقانون الوضوح ، [وهذا يتناقض مع نتيجة الشك عند ديكارت نفسه كما سنرى]

اما القانون الثانى ، فتقسيم الصعب هو اختبار كل حالة من الحالات المختلفة التي يمكن ان تطرأ على المشكلة التى نعمل

على حلها ، وفحص كل حالة على حدة كأنها مشكلة منفردة.

فإذا كان بحثنا يدور حول اجرام او مواد (كما في الهندسة والكيمياء مثلا) وجب علينا ان نهتم بكل جزء من الاجزاء على حدته.

ان ديكارت يعطينا في هذا القانون قاعدة للاختبار لا قانونا للبحث كالقانون الاول.

اما القانون الثالث فيحضنا على ان نبدأ بالسهل البسيط ومنه ننتقل الى المركب ، فما هو اذن البسيط ؟

هذا ما يجب عنه ديكارت في كتابه (قواعد لقيادة الفكر (Régles pour la direction de l'esprit) بأنه هو الواضح الذي لا يمكن العقل ان يقسمه اقاسيم اصغر.

نلاحظ انه لا يمكن ان نبدأ بالجزء ، إذ يجب ان نقوم اولا بتفحيص الكل لنعرف كيف نقسمه إلى اجزائه.

واما القانون الرابع فيطلب منا ان نتيقن بأننا لم نغفل شيئاً في بحثنا او تحليلنا.

والحقيقة ان هذه القاعدة تكميلية للثالثة وطريقة للاختبار، اكثر منها قانون.

*

* *

(٢)

مذهب الشك عند الغزالي وديكارت:

شك الغزالي في صحة احكام الحواس (١) ، وعرض على الخصوص بأقواها وهي حاسة البصر : اننا حين ننظر الى الظل نحسبه واقفاً لا يتحرك، ونحكم عليه بعدم الحركة، مع ان هذا حكم يتناقض ونتائج التجربة، فالحواس اذن بطبيعة تركيبها مضلة لا امان معها.

ونرى كذلك ديكارت يتخوف من خداع الحواس : ان الشيء الواحد يبعث الصور المختلفة في الظروف المتباينة ، الشيء الذي يجعلنا حائرين لا ندرى ماهي الصورة المخالفة للواقع فنتجنبها، وما هي الصورة المطابقة للواقع فنعتمد عليها.

ثم ينتقل الغزالي من شكه في الآثار الحسية الى الشك في احكام العقل : نرى ونعمل في النوم اموراً و كلنا اعتقاد في استقرارها ، حتى اذا استيقظنا علمنا انه لا اتصال واقعي بين اليقظة والمنام فنبقى في حيرة ، لانه لا يبعد ان يطرأ على يقظتنا شيء يحولها الى وهم كما طرأت على المنام اليقظة فهدمته.

ويأتي كذلك ديكارت بمثال المنام واليقظة: يرى النائم فيما يرى كثيراً من الصور والوقائع لا يلبث ان يكذبها في يقظته، فكيف

(١) انظر المنقذ من الضلال .

يمكننا ان نرجح صحة المنام على اليقظة او اليقظة على المنام، ونحن في محاكاتنا وتفضيلنا لا نعتمد الا على العقل - وهو بطبيعة تكوينه خادع غشاش - والعقل يعتمد على الحواس، وهي ايضا بطبيعة تركيبها تجره للخطإ، واننا لنرتكب اغلاطاً ونعتمد على اقيسة ضدّ المنطق حتى في الهندسة ؟

*
* *

الى هنا يتفق الرجلان، ومن هنا يفترقان، حيث ان الغزالي يصل بشكه الى السلب المطلق ويقف، اما صاحبنا الآخر فيسترسل في طريق بحثه، فعلى السلب يبنى الايجاب، ومن الشك يصل الى اليقين، كما يصرح بذلك هو نفسه: «كلما شككت ازددت تفكيراً فازددت يقيناً.»

*
* *

(٣)

نتيجة ارتيابات ديكارت

١) يقول: «اشك في كل شيء، ولا اسلم صحة اي شيء الا اذا اتضح لي وضوحاً جلياً انه صحيح».

لكن ديكارت مهما ارتاب في كل شيء فإن ارتيابه لا يشمل

حقيقة واحدة ، حقيقة تصم العزيمة على الثبوت رغم عاصفة الشك وتيار الارتياب ، تلك هي وجود (مَن يَشك) . فان ديكارت وان ارتاب في كل شيء ، حتى في وجوده ، فان هذا الشك لا يمكن ابداً ان يشمل (فكره) مادام التفكير ولو عن (طريق الشك) يثبت وجود (الفكر) .

فلأتصور ماشئت انى مخطىء او مصيب في الحسيات والجليات ، ولأفرض ان العالم الخارجى غير موجود البتة ، لكننى ارى نفسى منقاداً الى الاعتراف بوجودى الذاتى (اي كذات مفكرة) ، وإلا كيف ساغ لى ان أنخدع وان احكم على نفسى بانى انخدعت اذا لم أكن موجوداً ؟ يمكننى ان أشك في كل شيء الا فى كونى أشك ، وهل الشك الا صنف من أصناف التفكير ؟ وبما ان (التفكير) يستلزم وجود (المفكر) ، إذن : « أنا موجود . » (١)

ولخص ديكارت هذه النتيجة ، التى أضحت قانوناً أساسياً لفلسفته كلها، فى هذه الجملة اللاتينية المشهورة «Cogito ergo sum»:

---

١) ويفرق ديكارت بين شيأين : عملية التفكير والاعتقاد ، وعملية الشعور بأننا نفكر او نعتقد : «إن عملية الفكر التى نصل بها الى اعتقاد الشيء ، ليست هى نفس العملية التى نعرف بها اننا نعتقد هذا الشيء».
عن حديث المنهج .

إني أفكر ، إذن أنا موجود » .

على اننا نلمس عرجاً في هذه القاعدة التى تعد الأساس في مذهب الشك عند ديكارت ، وذلك ان الأجدر بالجملة - من الناحية المنطقية - ان تكون كما ياتي :

١ - التفكير يستلزم الوجود ، ٢ - أنا أفكر ،	المقدمتان
إذن: ٣ - أنا موجود	النتيجة

كما نلمس عطباً آخر ، وهو ان ديكارت لم يثبت فيما تقدم الا وجوده (كذات مفكرة) ، ولم يثبت وجود نفسه من حيث الحس و الشعور ، ومن جهة اخرى لم يثبت وجوده من حيث هو جسم ،اي (ما يعبر عنه ديكارت ، في حديث المنهج : بـ) « الذات التى كل كنهها انها تاخذ حظها من (الامتداد) » ، يعنى تلك الذات الحيوية التى تختلف عن الذات المفكرة وعن الروح التى « كل كنهها في انها تفكر » .

فلديكارت ، من هذه الناحية ، شبه كبير بالمعتزلة الذين حكموا العقل فى كل شيء ، وفوق كل شيء ، وتناسوا ان الإنسان حيوان ذو جسم و إحساس وعقل ، فاكتفوا باعتباره من ناحية

التفكير المجرد فحسب .

ومما يجب ملاحظته على المعتزلة (خاصة) انهم تغافلوا عن وجود الافتطار (intuition) (١) مع ان الدور الذي يقوم به في وصولنا الى إدراك بعض الحقائق ، او البعض من الحقائق ، مهم جداً ، فهو يوازى عمل الفكر (ان لم يتعداه) ؛ فحتى في العلوم الوضعية القحة كالحساب بانواعه (ميكانيك ، وجبر ، و ...) ، وكذلك الفيزيقى ، فان الفكر لا يتمتع بالنفوذ المطلق عند البحث ، فلنتتبع حركات حيسوبي وهو يحلل مشكلة هندسية مثلا ، اننا نلاحظ انه يبدأ بتسجيل إيحاء افتطاره وبصيرته ، ذلك الضياء الذي ينير له طريق اختراع التحليل دون ان يعتمد على المخيلة والحواس. وهكذا ينبثق رأي هذا الباحث ويسطو على السحب الكثيفة التى كانت تخيم فوق دماغه . بعد هذه المرحلة الاولى ، ياخذ عالمنا يختبر ما وصل اليه ، فيزنه بقواعد المنطق . (نستنتج من هذا ان دور الفكر ياتى في المرحلة الثانية) .

ومما يمكننا ان نوجه ضد الغزالي وديكارت على انتقادهما الحواسَ والفكرَ أنه :

---

١) اما الغزالي وديكارت فلم يهملاه [انظر الفصل الذي بعد هذا ودراسة كتاب المنقذ من الضلال بصفحة ١٤٩ - ١٥١]

أ)ـ اذا كانت الحواس تخدعنا احيانا ، فان (علم النفس) يلقننا قواعد نميز بها حالات الخداع من حالات الصواب وتعطينا طرقاً نتجنب بها هذا الخداع (١) .

ب)ـ واذا كان التفكير لا يؤتمن فيما ينقل الينا من احكام فان (علم المنطق) يحدد لنا قوانين تخضع لها تلك الاحكام فننخل بواسطتها الصحيح من الفاسد .

*
* *

٢ ـ من النتيجة المتقدمة (اي إثبات وجود نفسه) يصعد ديكارت الى اثبات وجود الله :

افكر اذن انا موجود ، وانا لم أوجد ذاتي ، فاذن هناك كائن هو الذى اوجدني ، فهو موجود .

ثم إني أشعر اني لست بكامل ، وأعترف بوجود صفات للكمال لست متصفا بها ، فلو كنت انا الذى أوجدت نفسي

١) وجهل المعتزلة لعلم النفس كذلك هو الذي يجعلنا نلمس بعض الشذوذ فى مذهبهم ؛ فعلم المنطق ما كان ليستقل بنفسه عن بقية فروع الفلسفة ، في دائرته الضيقة التى رسمها له أرسطو .

فإذا كان المنطق يبحث في (كيف يجب ان يفكر العقل) ، فعلم النفس يقرر الكيفية الواقعية للتفكير وحقيقة التفكير . فالمنطق يفرض قواعد ، وعلم النفس يستنتج القواعد مما يشاهد ، ويصفها كما يشاهدها .

لما جعلت فيها نقصانا .

فعلى هذا لابد من [كائن] اكثر منى كمالاً هو الذى اعطاني كل ماعندى .

هذا الكائن هو الله ؛ فالله اذن موجود .

نلاحظ على ديكارت كونه يذهب بنا إلى الشك المطلق ، الى اللانّهاية السلبية ، ثم ياخذنا معه فجأة الى عالم مناقض للأول كل المناقضة ، الى اليقين المطلق ، الى اللانهاية الإيجابية ، ولسان حاله يقول ، متمثلا بشطر بيت لأبى نواس : « كلام الليل يمحوه النهار » .

فهو قد بالغ فى تشكيكنا أولا ، ثم نقلنا فجأة الى اليقين التام ، الى اثبات وجود الله حتى اذا قلنا له : ان بقايا من الشك ماتزال تخالج فكرنا ، أجاب : ان فكرة وجود الله هي التى تخرجنا من هذا الشك . لكننا نسأله : أيستعان بالنتيجة على إثبات المقدمة ؟

ما اظن ديكارت قادراً على إفحامنا .

ومن الأسس ايضاً التى بنا عليها ديكارت شكوكه ، اننا نحكم على الاشياء اعتماداً على أفكار وهمية ، كالأفكار الموروثة والمعتقدات التقليدية ، ويدعو الى نبذ تلك الافكار واجتناب

التقليد : إن المقلدين نفر لايستطيعون تكوين فكرة شخصية في موضوع من المواضيع ، ولا يقدرون على تمييز الحق من الباطل ، فيعتمدون على آراء غيرهم .

ونجد الغزالي كذلك يمقت التقليد ، ويدعو للشك في المعتقدات الموروثة ، كما أثبته ابن الطفيل في رسالة حي ابن يقظان (ص ١٦ الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٣٦ ، النسخة العربية الفرنسية للمسيو جوتيي Lèon Gautier) : « ... ثم قال [الغزالي] بعد ذلك : ولو لم يكن في هذه الالفاظ الا مايشككك في اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعاً ، فان من لم يشكك لم ينظر (١) ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة ، ثم تمثل بهذا البيت :

« خذ ماتراه ، ودع عنك شيئاً سمعت به ❀
في طلعة الشمس مايغنيك عن زحل » .

فهذه صفة تعليمه ، واكثره انما هو رمز واشارة لاينتفع بها الا من وقف عليها ببصيرة نفسه أولا ، ثم سمعها منه ثانياً ،

---

١) ويقول م بيرني Joh Burnet في هذا المعنى : « إنه ليندر أن يثبت المرأ فكرة قبل أن يكون قد نفاها . »

أو من كان معداً لفهمها، فائق الفطرة، فهو يكتفي بأيسر إشارة ...».

ونجد هذا المعنى نفسه في آخر كتاب ميزان العمل، يقول الغزالي: « .. ولو لم يكن في مجارى هذه الكلمات الا مايشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب، فناهيك به نفعاً، اذ الشكوك هي الموصلة للحق، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال»(١).

*

* *

ان ديكارت ينتقد الفلسفة وينخز الفلاسفة، [في حديث المنهج] كما فعل الإمام الغزالي فى تهافت الفلاسفة لكن دون ادنى تحامل ولا مبالغة فى التطرف، فلنقتبس اذن بضع فقرات من (حديث المنهج):

ان الفلسفة لاتقدم لنا الا مايحتمل الصحة والبطلان، أو ماهو تقريباً باطل لاأساس له. اما الكثير من العلوم فهي متضعضعة الأركان لانها تعتمد على أسس فلسفة غير متينة.

ثم يقول فى القسم السادس من نفس الكتاب:

ان مثل أتباع ارسطو «أى معتنق الفلسفة التقليدية الجدلية»

---

١) كثيرا مايعيد الغزالي المعنى الواحد في مصنفات متعددة، كما نلاحظه في هذا المثال.

كمثل اللبلاب (١) الذى لايحاول ان يعلو على الشجر المحيط به. انهم على العكس ينحطون، وانحطاطهم آت من جرّاء مايخترعون من صعوبات (لايعرفها ارسطو) ولم تدر في خلده. فهذه الفلسفة لاتليق الا بالعقول المنحطة، فإنهم يتسترون وراء غموض مبادئهم، ليرتجلوا في اى موضوع شاءوا دون ان يستطيع أحد أن يفحمهم ويظهر عجزهم، فهم يعملون كأعمى يجر بصيراً الى قبر مظلم قبل الشروع فى الملاكمة معه.

(على ان انتقاد ديكارت لايشمل ارسطو والفلاسفة القدماء، وإنما هو موجه الى مقلدى ارسطو المقصرين، وهذا فرق مهم آخر بين هجومات الغزالى وهذا الانتقاد.)

*
* *

ان من يقارن بين [المنقذ من الضلال] الآنف الذكر وبين كتاب [الاسلوب والتأملات] لمترجمنا، يلاحظ ان ديكارت قد اقتبس أسس مذهبه من حجة الاسلام، بل تكاد تكون العبارات معادة في المصنفين، على بعد خمسة قرون تقريباً (بينهما ٤٨٥ سنة). وقد قام بهذه المقارنة الاستاذ شارل سومان

---

١) اللبلاب او البقلة الباردة (le lierre) : نبت يتعلق على الشجر وعلى كل ما فى قربه.

الفرنسى ، فى مقال ممتع ، اعترف فيه بأن الفيلسوف الأوروبى العظيم ، قد أخذ مبادئ مذهبه عن الإمام أبى حامد الغزالي رحمه الله .

*

* *

« اعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم، (١) ولم يجمعوا على ان اليقين طبقات في القوة والضعف، ولما قال أبو الجهم للمكى: أنا أكاد أشك ، قال المكى : وأنا أكاد أوقن ، ففخر عليه المكى بالشك فى مواضع الشك ، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى مواضع اليقين .

وقال أبو اسحاق :

نازعت الملحدين والشكاك فوجدت الشكاك ابصر بجوهر الكلام من اصحاب الجحود .

وقال ابو اسحاق :

الشكاك اقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار

---

١) الجاحظ ، كتاب الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٠ (وقد نبهني إلى هذا المرجع الاستاذ الكبير القاضى سيدي محمد السائح) فنقلت هذه الامثلة هنا تتميماً للفائدة .

فيه شك ، ولم ينتقل احد عن اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال الشك ، (١)

وقال ابو الجهم :

ما اطمعني في اوبة المتحير ، لأن كلّ من اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالته اليقين ، ومن وجد ضالته فرح بها .

وقال ابو اسحاق :

.... والعوام أقل شكوكا من الخواص لأنهم لا يتوقفون فى التصديق ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم الا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد ....

*

* *

وقد آمن بهذا القانون أيضاً (الشك مبدأ اليقين) دفييدهيون الأنجليزي . وإمانييل كانط الألماني ، وشبينوزا الهولاندي (١٦٧٧ ـ ١٦٣٢) ، وشادوا عليه فلسفتهم متممين مابدأه ديكارت الفرنسى .

نرى مما تقدم ان أسس مذهب ديكارت أب الفلسفة

---

١) يقول بهذه الفكرة نفسها الاستاذ Cuvillier في ج ١ ص ٤٦٦ من كتابه فى الفلسفة .

المصرية، (كما يسمونه) ومذهب كثير من فلاسفة أوروبا الحديثة قد عرفت عند مفكري الاسلام منذ قرون عديدة.



بضع ثوان مع الدكتور
زكي مبارك

يجد القراء فيما تقدم ، أني اكتفيت بإشارات إلى أفكار للغزالي ينتصر لها أقطاب الفلسفة الحديثة الاوروبية ، وقد لبست حلة التجديد واصطبغت بطابعهم الخاص ، وكان كل همي الاشارة فحسب ، لان موضوع هذا الكتاب لايسع أكثر من هذا . وانه لمن أهم المواضيع (لبحوث مهمة مفيدة) مقارنات بين افكار هؤلاء وافكار أبي حامد ، مقارنات ودراسات أمتن وأعمق مما حاوله الدكتور زكي مبارك ، (مع كل احتراماتي) ، في أطروحته (الاخلاق عند الغزالي) . حيث لم يظهر فيه بشخصية الاستاذ زكي صاحب (التصوف الاسلامي والنثر الفني) .

تصدى الدكتور زكي لموازنة أبي حامد ببعض المعاصرين من فلاسفة الغرب ، لكن ليست بين تلك الموازنات وحدة الموضوع .

واذا تجاوزنا فاستثنينا مقارنة الغزالي بديكارت ، لا نرى للباقى من محل ، اذ لا يربط حجة الاسلام بأولئك الاوروبيين إلا جامعات ليست بأمتن من خيوط العنكبوت ، أبى قلم الدكتور الا ان يحوكها.

فلأكتف بأن اطلب من القراء أن يتفضلوا معى ، لنلقي جميعاً نظرة قصيرة على هذه المقارنة التى توفق فيها الاستاذ زكى اكثر من توفقه في الموازنات الاخرى.

إن أول مايفاجؤنا فيها هو ان الدكتور زكى كردس قوانين (حديث المنهج الاربعة) حتى أمست تكرفس كرفسة ، وذلك أنه ابتلع منهـا القانون الرابع ، أستغفر الله ، إنه عوّضه بقانون جديد (وهذا من شأن الكرام !) : إنه أقبر الرابع ، وأتى إلى الثالث وقزّ الاحتى صيره أعرج ، وانتزع منه ما اصطنع به قانوناً رابعاً ، ونسبه لديكارت ، ويشهد الله والمتفلسفون أجمعون ان ديكارت لم يضعه ولم يسمع به قط.

فالدكتور قد ارتكب ذنبين كبيرين ، ما أظن إله الحكمة يغفرهما له ، وذلك أنه أولا هدم (منهج) ديكارت ، إذ جعله يرتكز على قواعد ثلاث عوضاً عن أربع ، ثانيـاً أنه أعطب القانون

الثالث عطباً خطيراً . [١]

*

* *

فلنترك ديكارت يحتج على الدكتور ، ولننتقل من ص ٣٨٠ إلى التي تلي ، ففيها مايلفت النظر .

يترجم الدكتور كلمة Intuition بالبصيرة ، ثم حاول شرح معناها ، فخانه التوفيق ، ولفق من جديد شيئاً جديداً على ديكارت ، وأشير من جديد الى هذا في ملاحظتين :

١) منطقية ـ إن الدكتور يتناقض في تفسيره ، فهو تارة يدعي أن (intuition) جارحة : « الجارحة التي تدرك الحقيقة مباشرة » ،

وطورا انها إدراك : « إدراك العقل السليم » ، والفرق بين (جارحة) و(إدراك) بيّن واضح .

ثم يقول : « إنه يولد فقط من أضواء العقل » . فهل الجارحة هي أضواء العقل ، أم أضواء العقل هي الجارحة ؟ ! فللدكتور حرية الاختيار ... رجاء الا يحنق علي .

---

١) انظر « الاخلاق عند الغزالي » ص ٣٨٠ ، وفي هذا الكتاب ص ٢١٤ - ٢١٦ ثم ارجع الى الاصل الفرنسي (Discours de la Méthode) وبعد ذلك قارن ....

إن ديكارت يتبرأ بكل قوالا من مسؤولية هذا التناقض ؛ فلننظر كيف يعرّف (الأنتويسيون)(١) : « فـ intuition عندي ليس هو أن أجعل ثقتي في شهادة الحواس المتغيرة او في الاحكام المخاتلة التي تقدمها لنا المخيلة ، بل هو ادراك العقـل السليم اليقظ ، الادراك الذي لسهولته ووضوحه لا يبقى معه شك فيما نفهم ؛ (٢) او بعبارة اخرى : الإدراك الوطيد (الثابت) الذي يتولد من اضواء الفكر فحسب ، في عقل سليم يقظ ، وهو اسهل ، وطبعاً أرجح ، من عملية استنتاج المطالب من المبادىء ... » .(٣) فهذه العملية تستنتج تدريجيا ، اما (الأنتويسيون) فتبصر بالشيء دفعة ، وتدركه بسرعة .

فليس إذن في تعريف ديكارت لفظة (جارحة) البتة ، فهي من منتوجات فكر الدكتور مبارك ، بارك الله فيه ، وزكاة من قلم الاستاذ زكي .

---

١) عن كتاب « قواعد لقيادة العقـل » لديكارت (Régles pour la direction de l'esprit) .

٢) فعن طريقه نتيقن مثلا أن (الجزء أصغر من الكل) ، وأن (الكل اكبر من الجزء) ، ونعتقد صحة أن [الشيء لا يكون معدوما وموجودا في آن واحد] ، وغير ذلك مما هو بديهي .

٣) La déduction

٢) الملاحظة اللغوية : أرى ترجمتها (١) ببصيرة لايجوز ، لأن البصيرة كما في القاموس : « الحجة والاستبصار في الشيء » ، و(أنتويسيون) عند ديكارت : إدراك سهل واضح وليس بحجة ، لان الحجة من قبيل déduction (٢) ؛ ثم ان : « البصيرة في القلب كالبصر في العين ؛ البصيرة تدرك المعقولات ، والبصر المحسوسات » ؛ (٣) فالبصيرة في القلب ، وديكارت يجعل (أنتويسيون) إدراكا يتولد من أضواء الفكر فحسب ، في عقل سليم يقظ ؛ فبينهما إذن بون شاسع . فالأولى أن يطلق على intuition (عند ديكارت) لفظة (حَدس) أي : « سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم » ، كما يقول الغزالي في تهافت الفلاسفة . وجاء في الفروق أيضاً : « الفكر هو الانتقال من المطالب الى المبادىء ورجوعها من المبادىء الى المطالب ؛ والحدس هو الذي يميز عمل الفكر . »

أما (أنتويسيون) ، لا عند ديكارت فحسب ، بل في معناه العام فهو : (٤)

١) أعني intuition عند ديكارت .

٢) انظر ص ٢٣٣ .

٣) عن فرائد اللغة ، ج ١ في الفروق للأب لامنس .

٤) أقف في هذه المسألة لانها أمست من النقط الاساسية في الفلسفة الحديثة ، وإنهم ليهتمون اليوم بدراسة انتويسيون بقدر مايهتمون بدراسة العقل .

الإدارك الواضح المباشر للحقائق التى تحصل فى العقل ، بلا واسطة التفكير . فصوت الضمير مثـلا ، ليس الا نوعا من الافتطار يدفعنا الى الصلاح والخير . وقد توسعوا في معنى (انتويسيون) فأطلقوه على الشعور بالشيء قبل وجوده ، او مع عدم وجود قرائن .

وفي الاصطلاح الفلسفى : فهـو حال من احوال الادراك السريع بلا واسطة التجربة او التفكير ؛ الادراك لاول نظرة ، غير معتمد على براهين وبحث ؛ ادراك البسيط لا المركب

أما برگسن Bergson فقد جعل من (الانتويسيون) أساساً متيناً لضرب طري من البحث دخل بالفلسفة في دروب جديدة. فعنده أن الانسان شخصان ، (١) شخص سطحي وشخص عميق. فالاول يعتمد على العقل واللسان ، وهو شخص محدود ، بيّن ، سطحي . أما الثانى فإنه مبهم ، دائم الحركة ، ومن الممتنع التعبير عنه، لكنه اكثر عمقاً من الآخر إذ هو بحق الشخص الاصلي في الانسان .

فالافكار العلمية مثلا التى يقدمها لك الاساتذة ، او تقرأها فى الكتب ، افكار تدخل الى شخصك السطحي لانها لا تتصل

---

١) انظر ص ١٥٠ و ١٥١ من هذا الكتاب .

الا بعقلك ولا تتغلغل في شخصك العميق ، أي إنها شيء جامد أضيف إليك ، عارض قابل لان ينسحب حيث انه ليس من كنهك .

انظروا كيف يعبر (برجسن) عن هذا ، في تشبيه بديع :

« فالافكار الجامدة التى يتكون منها الشخص السطحى تطفو فوق مساحة شعورنا الداخلى ، كما تطفو الاوراق الذابلة فوق ماء البحيرة » . (١)

*

* *

وهنا نتساءل : كيف يمكننا ان نصل الى هذا الشخص الاصلى العميق الذي يحجبه عنا الشخص السطحى ويحولنا عنه ؟

يجيبنا (بركسن) بأن الطريق الأوحد هو انتويسيون، أي: «ذلك النوع من الانجذاب النفسى الذي ينتقل به المرء الى داخل الاشياء ليمتزج بما انفرد به كل واحد منها، وبالطبع مايعجز عن التعبير عنه».

ومما نزيد فى قيمة (الانتويسيون) ان ديكارت وبرجسن

---

١) إن الاستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود (قصة الفلسفة الحديثة ص ٥٢٩ ، ج ٢) ، عند كلامهما عن بركسن ، أعطيا تفسيراً شعرياً لـ (أنتويسيون) اكثر منه فلسفياً ، حيث يعبران عنه بـ : « حاسة الحَياة » ، ولا ندري .. أين ولا كيف هاته الحاسة ! فهذ اسلوب رمزي غامض يحتاج إلى كثير من الشرح والدقة . وقد أتى ألاستاذان بتوطئة طويلة لأنتويسيون ، لكنهما حين وصلا إلى المقصود مرا (مرورَ المومنين على الصراط) ، فالرؤيا عندهما أطول من الليل .

يعتمدان عليها لبناء صرح (ميتافيزيقي أي ماوراء الطبيعة) جديدة، فللغزالي - شيء من الشبه - بهما في هذه الناحية (فقد حاول الوصول للحقائق عن طريق الذوق والإلهام، كما رأينا). (١)

*

* *

عرفت الأنتويسيون قبل برڭسن والغزالي وديكارت. فأفلاطون يجعل من الافكار أسس المعرفة، ويرى ان الوصول إلى هذه الافكار يكون عن طريق (الادراك السهل المباشر الذي يتجلى كأنه ذكرة تستيقظ بداخلنا)، وهذا الادراك طبعا هو الانتويسيون.

ونجدها أيضاً عند أرسطو، وعند القديس طوماس (على ان هذا الاخير قد صبغها بالصبغة الدينية) كما عرفها آخرون غير هؤلاء من القدماء وكثير من الجدد كـ (مالبرانش) و(كانط) و(بوسيي).

ويعبر عنها نبي الاسلام (صلعم) في حديث حسن أخرجه

---

١) بما انه يصعب ترجمة (intuition انتويسيون) بلفظة عربية جامعة لمختلف معانيه، اقترح ان يدخل في اللسان العربي هذا اللفظ الاعجمي عوضا من ان نبقى نتردد بين ذوق، وحدس، وبصيرة، وافتطار)، وان تمسى انتويسيون مرادفة لـ intuition في مختلف المعانى.

البخاري في تاريخه : « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » .
وقد شرح المناوي (١) هذا الحديث شرحاً ظريفاً اقتطف منه
هذه الجملة : « استفت نفسك المطمئنة الموهوبة نوراً يفرق بين
الحق والباطل ، والصدق والكذب . وفي رواية : قلبك اي
عول على مافيه ، لان للنفس شعوراً بما تحمد عاقبته او تذم ... » .

فالفضل يرجع الى برگسن مهما يكن من شيء لانه وان
كان لم يكتشف الانتويسيون ، فقد أعطاها حقها من الدرس
والعناية ، وجعل لها مجالاً خاصاً بها بعد ان رسم للعقل
حدود مجاله .

*

* *

لا أريد في هذه العجالة سوى أن أنبه الى ان الدكتور زكي
لم يف بما كنت اتوقع أن أجده في كتابه ، وقد كان يجب ان يعتني
آخرون بموضوع (الغزالي والفلاسفة المحدثين) ..

ولم ارد في هذه العجالة أن أنتقد كتاب (الاخلاق عند
الغزالي) ، لان ذلك يخرج بي الى تطويل ، وسأراني - ان فعلت -

---

١) في ج ١ ص ٤٩٥ من كتاب شرح القدير على الجامع
الصغير للسيوطي .

مضطرا الى مواخذة الدكتور على امور وامور ، من ذلك اتهامه الغزالي بأنه يمتاز بقسط كبير من الغفلة لمجرد روايته بعض الاحاديث لم يستملحها ذوق الدكتور ، فحكم عليها بالضعف جزافا ، ناسيا ان لعلم الحديث قواعد ترتكز على التاريخ - لان الاحاديث نقلية - وعلى المنطق ومعرفة اسرار التشريع والسيرة النبوية .. اكثر مما تعتمد على الذوق الذي هو نسبي يختلف باختلاف الافراد ، فلنستمع لما يقوله الدكتور ، (ص ١١٧) :

« ... كيف صدق الغزالي ان النبي يقول : (ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ) واقل الناس علماً بالبلاغة يدرك ان رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث ؟ » !

ماهكذا يادكتور ينتقد الحديث ، فالفقرة الاولى مقتبسة من القرآن (١) الكريم ، واما الفقرة الثانية (من الناحية البلاغية ، أي اتباعاً لطريقتكم ، فهي تشبيه مركب ملفوف على حد قول امرئ القيس :

« كأن قلوب الطير رطباً ويابساً ❀
لدى وكرها العناب والحشف البالي » .

«١» الآية ١١٤ ، الحزب ٢٤ ، سورة هود ، قال الله تعلى : « إن الحسنات يذهبن السيئات .. » .

طرفاه الاولان معنويان والآخران حسيان ، ولهذا يعد من التشبيهات البليغة .

*

* *

كما سأرانى مضطرا (او أنى تصديت الى انتقاد الاخلاق عند الغزالي) الى التساؤل لماذا يصرح الدكتور بأن إخوان الصفا ، والفارابى ، وابن سينا قد أثروا فى تكوين الغزالى ، دون ان يجعل لحكمه دعائم ، ودون ان يبين لنا الى اي حد كان هذا التأثر ، وبم ، وكيف كان ، مع ان موضوع كتابه يتطلب منه بكل إلحاح هذه الدراسة .

*

* *

ونتساءل أيضاً لماذا يذكر من بين كتب الغزالى (المضنون به على غير اهله) دون ان يفرق بين الأصغر والاكبر ، حتى إنه في الفصل الخامس « الكذب على الغزالى » عشر عثرة ليست بالهينة إذ جعل (كتاب النفخ والتسوية) على حدة ، و (المضنون به على غير اهله) كتاباً آخر مستقلا مع ان العنوانين لمصنف واحد يسمى بالاسمين

معا . والكتاب يعزى لابي حامد كما ينسب للعالم المغربي ابى الحسن

على المسفر (١) .

*

* *

وسأراني ملزما ايضا أن أحاسبه باسم علم الحساب ، وباسم الحيسوبيين ، على جعله ٥٣٠ سنة بين الغزالي وديكارت (٢) ، مع ان عملية السقط والطرح البسيطة تعطينا نتيجة غير التي ادعاها الدكتور ، فالغزالي مات سنة ٥٠٥ ه اي سنة ١١١١م وديكارت ولد سنة ١٥٩٦ م ، فالبعد بينهما ٤٨٥ سنة ، (الفرق يادكتور ، ٤٥ سنة ؛ ومن الغبن الغض عن ٤٥ سنة ، وهي تكاد تكون حياة كاملة ...)

*

* *

وسأراني منقادا لان اظهر تصريحه عن الاغريق (٣) :

« .. ولا ادري ماذا يفعل الغزالي إذا اقسم الاغارقة بالله جهد ايمانهم انه لم يكن لهم إله واحد ، وانما كان لهم الف إله وإله ، بل كان من آلهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل !! » .

فأيم الله جهد أيماني ان هذا قدح بغير علم في الاغريق ،

«١» انظر ص ١٥٦ بهذا الكتاب .

«٢» انظر ص ٣٧٤ من (الاخلاق عند الغزالي) .

«٣» ص ٧١ من الكتاب نفسه .

وتنقيص من تفكيرهم ، وتجريح في آلهتهم يستلزم حد القذف على الدكتور زكي .

بارك الله فيك يادكتور ، إن لفظة (إله) تشعرنا بمعنى السمو في الكنه والاتجاه . فالإله عنصر الحسن ، ومصدر الخير . اما لفظة (لذة) ، وكلمة (فسق) فتشعرانا بمعنى السقوط والانحطاط والازدراء . فكيف ساغ للدكتور ان يجمع بين المعنيين المتناقضين المتضاربين ، معنى الالوهية التي تحلق بالافكار في اوج السمو وتحذر النفوس الضعيفة من الزلل والسقوط الى حضيض الشهوات البهيمية ، ومعنى فسق اي : « الترك لامر الله والعصيان والخروج عن طريق (١) الحق » ؟

ان الإله يرفع نحو الكمال ، وينزل بمطرقته الصارمة فوق جمجمة اولئك المنغمسين في الملاذ ، المنجذبين نحو هوة الفسق بجارف اللذة .

فالافكار الدينية والاخلاق ، كل اولئك نسبي . فلا يجوز لكم ياحضرة الاستاذ ان تزنوا معتقدات الاغريق القدماء الوثنيين ونظرياتهم في الاخلاق ، بفكركم الشرقي المسلم

---

١) كذا يعرفه صاحب القاموس .

الموحد ، فمثلا نقول ان الخمر حرام لاننا نحكم بفكر متشبع بالتشريع الاسلامى ، وفي نفس الوقت نجد قبطيا ـ مصريا مثلكم ـ لايقول بهذا التحريم . كما انكم تاكلون لحم البقر ، وتستحلونه مطبوخا ومشويا ، في حين ان الهندي البرهمي المعاصر ، وهو ابن الشرق كذلك ، يقدس البقر ويحرم على نفسه ماتفعلونه انتم كشيء طبيعي .

فلفظ (فسق) يطلق غالبا على اللذة الجسمية ، وعلى اعمال الذين يخرجون عن طريق الحق والصواب ، ويستحقون بطبيعة الحال عقابا من ربهم ؛ فإذا كان هذا الرب المعبود يحض هو نفسه على اللذة ، ويمهد للفسق السبيل ، ارتفعت عنهم المسؤولية واضمحلت إمكانية الجزاء على (الفسق) ، بل إنهم يعاقبون ، إلزاما على تركهم الفسق مادام الإله هو الذي مهد لهم السبيل اليه ، ويحضهم عليه ! ..

حقا ، كان عندهم باخوس Baccus إلهاً للخمر ، اي مشرفا على زراعة العنب ، ولكن لم يكن الخمر فسقا بالنسبة اليهم حتى نعتبر باخوس مهد للفسق السبيل .

وكان عندهم كثير من الآلهة [الف اله واله ، كما يقول

الأستاذ زكى] ولكن فلنكتف بمثال باخوس ، وليتفضل حضرة الدكتور بمراجعة [الميطولوجية (١)] الاغريقية من جديد .

***

فليسمح لى القراء إن اكتفيت بهذا القدر من مناقشة الاستاذ زكى ، وليسمح لى زكى الاستاذ ، فإنما هذه اول خطوة للتعارف لا للتصادم .



«١» La mythologie grecque أي تاريخ آلهة الاغريق .

خاتمة

هذه دراسات أقدمها لمواطني ، ولا ريب أنها ستنال رضا وتشجيعا من فريق ، وانتقاداً نزيها يستفيد منه الجميع ؛ وستكون من ناحية أخرى سبب حرب من السب والتشويش يرسلها المغرضون شعواء ، والرجعيون هوجاء ....

ولقد قرأ البعض من إخواني - لجمود هؤلاء ، ولسوء نية الآخرين - ألفَ حساب ، فألحوا عليّ في أن لا أنشر الآن الا القليل النزر مما كان بودي أن أجعله بين يدَي كل قارئٍ انفتح فكره ، ونضجت معارفه ، حتى اضحى قادراً على متابعة الحركة الثقافية في الشرق والغرب ، وسما عن حضيض التقليد الى مرتبة الاستبصار ، ينخل الحق من الباطل ، فيدافع عن الحق بقلب سليم ، ويغض الباطل بالتي هي أحسن .

اتبعت نصح هؤلاء الأصدقاء ، وأول ما يتبادر للذهن أن في هذا اعترافاً بأني خفت في الحق لومة اللاّئمين ، ورضخت

لحب الاطمئنان و آثرت العيش الهادئ، وأيم الحق ان ليس في هذا من حق ؛ فالجمـود وعدم احترام افكار الغير، وتهديم كل مشروع ليس مطبوعاً بالصبغة الفلانية او الفلانية . . كل ذلك امراض في المجتمع المغربي ، فعوضا من ان نصارع المرضى يجب ان نعاملهم باللين ، وان نحيطهم بعلاج مسترسل تدريجي (فالداء بالقنطار ، والراحة على رأس الإبرة) كما يقول مثلنا العامي .

فهذه رسالة مفتوحة لأولائك الاصدقاء الذين سيتنبهون الى حذف فصول وتعاليق كنت أطلعتهم عليها في تصميم هذا الكتاب قبل طبعه ، فليعلموا انى ماتأخرت عن ذلك خوفاً من اسخاط جماعة او حباً فى إرضاء أخرى (١) .

☆☆☆

بهذه السلسلة أضع إن شاء الله لبنتى فيما يضع إخوانى لدعم ماهوى وإصلاح مااعوج من صرح المدنية المغربية ، وكل همى أن أراعى الوسط الذي اكتب له - كما فعلت فى هذه الحلقة - حتى نصل الى الغاية المنشودة ، فاكتفيت ، وسأكتفي ، بالترجمة (مع تعاليق او بلا تعاليق) حينا ، واحبر فصولا تكميلية احيانا ،

«١» كما أنى اضطررت قهرا الى حذف بعض الفصول تحت وطأة بعض الظروف ....

وألخص طوراً ، وألزم الصمت في كثير من الحالات لان وقت التعليق عليها او التحدث عنها لم يات بعد .

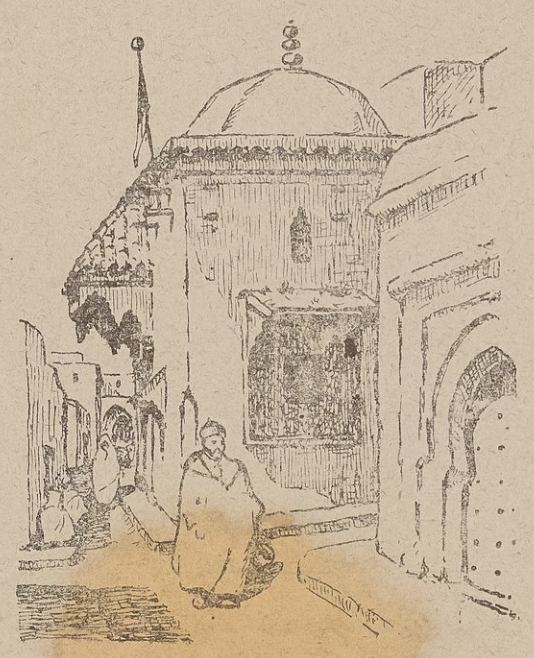
* *
*

ويجدر بى ، قبل ان اودع القاريء ، ان ارفع خالص شكرى لاصدقاءى الغيورين الذين شجعونى ماديا على طبع الكتاب حيث أقرضونى من مالهم ما انا معترف لهم به على الدوام .

*
* *

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة » ،

« ربنا انك تعلم مانخفى وما نعلن » .



الفهرس [1]

الموضوع

الصفحة

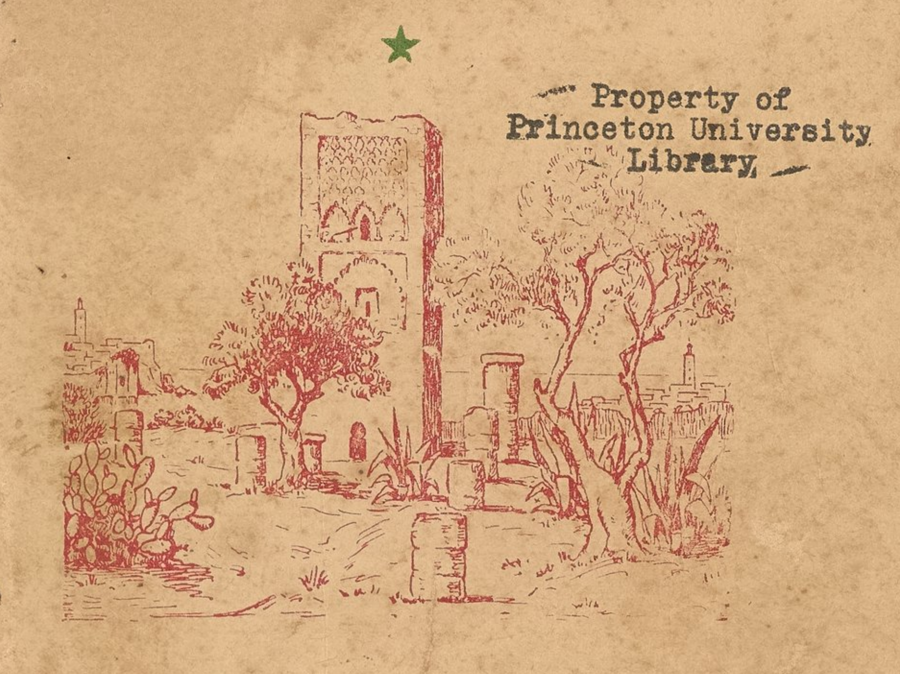
---

(١) ☆ كل الفصول المسبوقة بهذه العلامة : ☆ فمترجمة .

*

* *

LES PENSEURS DE L'ISLAM



MOHAMED LAHBABI

IM. OMNIA RABAT


Princeton University Library
32101 074436286